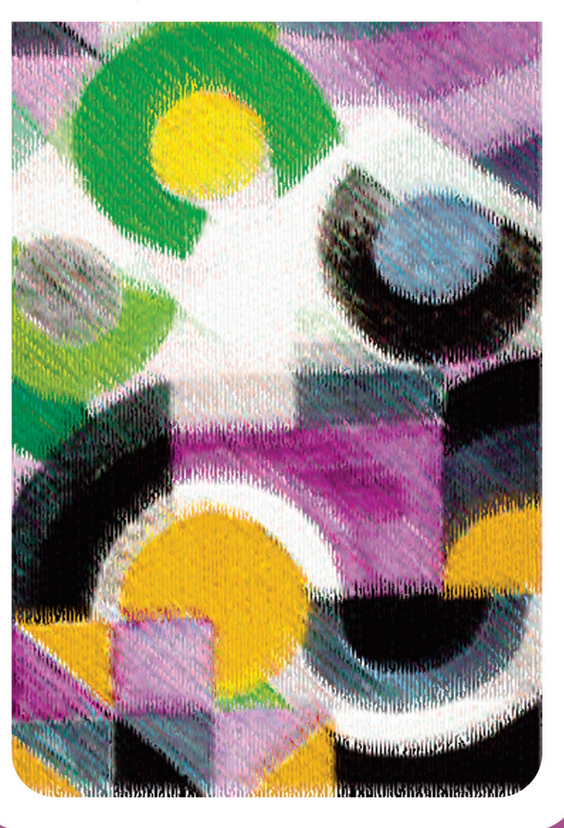
الإصدار: 83





أسس النظام الاجتماعي في الإســـلام



د. عبد الحميد عيد عوض

آفاق

يهـدى ولا يباع



أسس النظام الاجتماعي في الإسلام

د. عبد الحميد عيد عوض

الإصدار: 83 (فبراير 2014م / ربيع أول 1435هـ)

الإخراج الفني: محمود محمد أبو الفضل
محمود البـــاز

د. عبد الحميد عيد عوض

من مواليد مصر، حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر، عمل بكلية أصول الدين بالمنصورة، ومدرسا للشريعة والدراسات الإسلامية بالمعهد الديني بالكويت.

من مؤلفاته: «فن الدعوة في كتابات سيد قطب»، و«قضايا الأسرة والمرأة بين حقائق الإسلام وشبهات المستشرقين»...



نهـر متعـدد ... متجـدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (965+) - فاكس: 22445465 (965+)

نقال: 99255322 (965+)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed

الطبعة الأولى - دولة الكويت

فبراير **2014** م / ربيع أول **1435**هـ

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: **www.islam.gov.kw**

رقم الإيداع بمركز المعلومات: **2013/128**

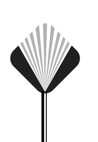
تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: **2013 / 211**

ردمك: **978-99966-50-98-7**

فهرس المحتويات





تصدير

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

ليس المشكل، بالنسبة لأهل الإسلام، كامنا في جهلهم بملامح النظام الاجتماعي في الإسلام، أو عدم فهمهم لطبيعة العلاقات الاجتماعية مؤصلة في هدايات القرآن وتوجيهات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وإنما يكمن المشكل في غياب وسائل تفعيل القيم التي تشكل محرك ذلك النظام داخل الأسرة وفي العلاقات الاجتماعية بين مكونات المجتمع.

ومن هذا المنطلق، فإن الأمر يستدعي إبراز العلاقة الحتمية بين مكونات العقيدة ومكونات النظام الاجتماعي في الإسلام، فيكون كل ضعف في العلاقات الاجتماعية يبتعد عن روح القيم القرآنية إنما هو ضعف في عقيدة الأفراد الذين يكونون الأسر والجوار وسائر العلاقات، والعكس صحيح، حيث إن أي قوة في الأول تكون استمدادا للقوة الكامنة في الثاني.

وقد سعى الباحث عبد الحميد عيد عوض إلى أن يبين جوهر تلك العلاقة من خلال رصد الأسس العقدية والفكرية التي يقوم عليها صرح النظام الاجتماعي في الإسلام، إضافة إلى الأسس الأخلاقية، وبيان آثار ذلك كله على شبكة العلاقات الاجتماعية تضحية وإيثارا وإصلاحا وتكافلا واحتراما للحرية والكرامة.

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام والمهتمين، إسهاما منها في التذكير بخصائص النظام الاجتماعي التي كفلت للمجتمعات الإسلامية حصانة ضد العديد من السلبيات والمشكلات التي هددت الإنسانية وما تزال، ولم تعد الأسر والمجتمعات الإسلامية في مأمن من أخطارها سائلة المولى أن ينفع به، وأن يجزي مؤلفه خير الجزاء...

إنه سميع مجيب...



الباب الأول

أسس النظام الاجتماعي في ضوء الكتاب والسنة



الفصل الأول

الأسس الفكرية للنظام الاجتماعي

المبحث الأول

العقيدة الإسلامية

إن العقيدة الصادقة هي أساس كل بناء في الإسلام، لا يصلح أمر في حياة البشرية إلا بها، ولا يستنير الكون إلا بنورها، وكل نظام اجتماعي لم يؤسس على هذه العقيدة، هو نظام تعاسة وشقاء، بل ولا أمل في أن يعمِّر طويلاً؛ لأن العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تملك سبل التغيير والإصلاح في المجتمعات البشرية.

وسوف ينتظم الحديث في هذا المبحث -إن شاء الله- حول المطالب الآتية:

المطلب الأول- حال المجتمعات عقدياً قبل الإسلام:

لقد جاء الإسلام والعالم يتخبط في دياجير الظلام وغياهم الضلال الذي خيم على كل جانب من جوانبه حيث كان الناس في ضلال مبين: ضلال في التصور، وضلال في الاعتقاد، وضلال في مفهومات الحياة، وضلال في الغاية والاتجاه، وضلال في العادات والسلوك، وضلال في الأنظمة والأوضاع، وضلال في المجتمع والأخلاق[1].

وفي ظل هذا الضلال كانت جزيرة العرب[2] تعج بالعقائد الفاسدة، والتصورات الباطلة، حيث انحرفت عن جادة الصواب إلى الشرك بالله على يد عَمْرُو بن لُحي الخزاعي، وسبب ذلك أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم «مآب» من أرض

١- في ظلال القرآن: الشيخ سيد قطب، ج ١ ص٥١١.

٢- كان تركيز الحديث في هذه النقطة على جزيرة العرب على وجه الخصوص لأنها مهد الرسالة الخاتمة وموطن التغيير والتحول في بدء الرسالة، ومنها انطلق إلى العالم أجمع، ولإظهار الفرق بين الحياة العقدية قبل الإسلام وبين ما أصبحت عليه بعد ظهوره.

البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق، ويقال ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها ونستنصرها، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطوه صنماً يقال له «هبل»، فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[1].

ولم يقتصر الأمر في الجزيرة العربية على عبادة الأوثان، بل لقد ماجت فيها عقائد وعبادات كثيرة، على رأسها ما نقلته من الفرس، وما تسرب إليها من اليهودية والمسيحية.. يتحدث المسعودي عن هذه المعتقدات فيقول: «كانت العرب في جاهليتهم فرقاً: فمنهم من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم، وأقر بالبعث والإعادة، وأنكر الرسل، وعكف على عبادة الأصنام وهم الذين حكى الله عز وجل عنهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[2]، وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها، ونحروا لها البُدن ونسكوا لها النسائك، وأحلوا لها وحرموا..

ومنهم من أقر بالخالق، وكذب بالرسل والبعث ومال إلى قول أهل الدهر، وهؤلاء الذين حكى الله تعالى إلحادهم وخبَّر عن كفرهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[3]، فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[4].

١- البداية والنهاية للحافظ ابن كثير: ج٢ ص١٩٤، ط دار الريان، الأولى ١٤٠٨ هـ -١٩٨٨م، وانظر: الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: ج٣ ص٥٤٨، ط دار الكتب العلمية – بيروت، ط ثانية ١٩٩٢م.

٢- سورة الزمر: الآية ٣.

٣- سورة الجاثية: الآية ٢٤.

٤- سورة الجاثية: الآية ٢٤.

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية، ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهمجيته، وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة، ويزعمون أنها بنات الله، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله، وهم الذين أخبر الله عنهم عز وجل بقوله: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾[1] [2].

كما أخبر القرآن الكريم أن بعضهم كان يعبد الجن حيث زعموا أن بين الله وبين الجن نسبا.. قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾[4]، بل وصل بهم الانحطاط العقدي إلى درجة أنهم عبدوا جنس الحجر من دون الله تعالى، فعن رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حُثْوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به»[5].

وهكذا يتبين أن فكرة التوحيد الخالص كانت أشد الأفكار غرابة عند العرب، وقد صور القرآن هذا التعجب بقوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا

١- سورة النحل: الآية ٥٧.

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبى الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي: ج٢ ص ١٢٦، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط دار المعرفة- بيروت لبنان، د.ت.

٣- سورة الصافات: الآيتان ١٥١، ١٥٢.

٤- سورة سبأ الآيتان: ٤٠، ٤١.

٥- أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، ج٨ ص ١١٢، حديث رقم: (٤٣٧٦)، (فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط دار الحديث - الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٨م).

﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1].. تلك هي الصورة الشائعة للتصورات والمعتقدات في الجزيرة العربية نضيفها إلى ذلك الركام من بقايا العقائد السماوية المحرفة التي كانت سائدة في الشرق والغرب.

ولا شك أن هذا الفساد العقدي الذي شمل المجتمع الجاهلي على صعيد مجالاته المختلفة كان له آثاره السيئة على واقع هذا المجتمع؛ لأن الانحراف عن العقيدة الصحيحة يتبعه الضعف العام في سلوك الأفراد والجماعات، فليس هناك إله حق يخافون منه، وليس هناك إيمان باليوم الآخر يضبط سلوكهم وأخلاقهم، ومن ثم أصبح هذا المجتمع غير آهل بالسكان لأنه في ظل غياب العقيدة الصحيحة يصبح الأفراد كقطعان من الحيوان في غابة موحشة يأكل القوي فيها الضعيف، وهذا ما حدث في المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، حيث تحول هذا المجتمع - في ظل غياب العقيدة الصحيحة - إلى ساحة لسفك الدماء، وخمارات لمعاقرة الخمر، ومواخر للزنا والانحراف.

المطلب الثاني- أهمية العقيدة الإسلامية للمجتمعات البشرية:

إن العقيدة الإسلامية لها أهمية عظيمة في بناء المجتمع الصالح؛ إذ إن هناك ارتباطاً وثيقاً بين «النظام الاجتماعي» وطبيعة التصور الاعتقادي بل هناك ما هو أكبر من الارتباط الوثيق؛ هناك الانبثاق الحيوي... فالنظام الاجتماعي بكل خصائصه هو أحد انبثاقات التصور الاعتقادي.

وكل نظام اجتماعي لا يقوم على غير هذا الأساس هو نظام مصطنع لا يعيش، وإذا عاش فترة شقي به «الإنسان» ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتما فهي ضرورة تنظيمية، كما أنها ضرورة شعورية[2].

١- سورة ص الآيتان: ٤، ٥.

٢- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب ص٢٤، وانظر: المستقبل لهذا الدين، سيد قطب ص ١٢، ١٣ ط دار الشروق ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

ومن هنا كان دأب رسل الله الكرام مع أقوامهم «فقد بدأوا بالعقيدة أولاً ليعالجوا بها أوضاعاً خاطئة في مجتمعاتهم، وتصورات ضالة في بيئتهم، وسلوك منحرف فيما بينهم، ترى مصداق ذلك من استقرائك لقصص الأنبياء والرسل الكرام فهم يتفقون جميعاً في هذه البداية، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾[1] [2].

وكذا بدأ الرسول ﷺ هذه البداية الصحيحة ليستقيم الفرع باستقامة الأصل.. «فقد مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يربي أصحابه على عقيدة التوحيد لأنها الأساس الذي يقوم عليه بناء المجتمع الصالح بمختلف أشكاله وصوره وعلاقاته، وما قام البناء الاجتماعي في المدينة إلا على أساس من هؤلاء الذين رسخت فيهم عقيدة التوحيد»[3].

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يختار المجتمع العربي الذي يمثل آنذاك المجتمع المتخلف في نظر المجتمعات الأخرى التي تقدمت في الجانب المادي مثل مجتمع الفرس والروم ليقدم منه نموذجاً حيًّا للمجتمعات البشرية قديماً وحديثاً، تلك المجتمعات التي تدعي الحضارة والمدنية، كيف يمكن لعقيدة التوحيد أن تصنع من المجتمع العربي الجاهلي مجتمعاً يقود البشرية وينقلها إلى قمة السمو والحضارة.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي مبيناً ما أحدثته عقيدة الإسلام في المجتمع الجاهلي «لم يتغير بهذا الانقلاب طراز إدارة البلاد فحسب،

١- سورة هود: الآية ٦١.

٢- منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام، جمعة أمين عبد العزيز، ص٤٢ ط دار الدعوة – الثانية ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٣- منهج القرآن في إصلاح المجتمع د. محمد السيد يوسف، ص١٣٩، ط دار السلام – الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

بل الحقيقة أنه تبدلت بهذا الانقلاب العقليات، ووجهات الأنظار ومناهج التفكير وتغيرت طريقة المعيشة والأخلاق والعادات تغيراً تاماً، وبالجملة فقد انقلبت أرض العرب ظهرا لبطن، فالذين كانوا يأتون الفاحشة من رجالهم أصبحوا حماة الأعراض، والذين كانوا يعاقرون الخمر عادوا دعاة لإلقاء المسكرات، واستئصال شأفتها، والذين كان دينهم التلصص وقطع الطريق قد بلغوا مبلغاً من الورع جعلوا يتحرجون الأكل عند أصدقائهم حذراً أن يكون من قبيل أكل المال الحرام، والذين كان من شيمهم شن الغارات، والاعتداء على حقوق الناس قد صعدوا أعلى معارج الزهد والتقى[1]. وهكذا صاغت عقيدة الإسلام المجتمع العربي الجاهلي، وما زالت مستعدة لصياغة أي مجتمع مهما بلغ تخلفه وانحطاطه.

وواقع المجتمعات يؤكد أن المعاناة التي تتلبسها بين الحين والحين من مشكلات كبيرة بلغ ببعضها إلى حد الدمار الشامل إنما سببه غياب العقيدة الإسلامية عن الساحة. فإذا كان السبب الرئيسي لتخلف الأمة وتنكبها عن سواء الصراط هو ضعف العقيدة «فلا بد ونحن نعمل على إعادة مجد أمتنا، وإصلاح أوضاع مجتمعنا أن نسعى جاهدين في غرس العقيدة وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها، وأن نترجم الخطة التي رسمها القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ في تعهدها بالتربية والتنمية حتى تبلغ غايتها من القوة وتصل إلى النهاية من اليقين الذي يأخذ بأيدينا إلى الحياة الطيبة، ويرفعنا إلى أسمى درجات العز والشرف»[2].

١- منهاج الانقلاب الإسلامي، أبو الأعلى المودودي ص٩٦، ط مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـ -١٩٧٩م.

٢- انظر: العقائد الإسلامية، السيد سابق، ص١٦، ط دار التراث العربي – الثالثة ١٣٩٦هـ -١٩٧٦م.

المطلب الثالث: أثر العقيدة الإسلامية في بناء المجتمع

إن العقيدة الإسلامية هي رائدة الإصلاح في كل المجتمعات التي حلت بها، فهي التي غيرت مجتمع المدينة المنورة من مجتمع العداوة والبغضاء والمعارك الطاحنة إلى مجتمع الأخوة والتراحم والسلام، وهي التي غيرت مجتمع العرب من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع العلم والحضارة والمدنية.

ومن هنا فإن العقيدة الإسلامية لها آثار جليلة، وثمرات يانعة تعود على الفرد والمجتمع، وهي من الكثرة بحيث لا يمكن حصرها لأنها تشمل كل جوانب المجتمع نذكر منها ما يلي:

أ- التضحية:

إن القلب متى تذوق حلاوة الإيمان، واعتنق عقيدة التوحيد، وثبت عليها لابد من دافع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، وفي واقع الحياة في دنيا الناس، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة التي في حسه والصورة الواقعية من حوله، لأن هذه المفارقة تؤذيه، وتصدمه في كل لحظة..

ومن هنا كانت النماذج الفذة التي قدمها الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان، لقد نذروا أرواحهم وأموالهم، وجادوا بالمهج في سبيل الله عن رضا واختيار. نعم لقد تاجروا مع الله بالنفس والنفيس، خفافاً وثقالاً، رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً.. «قرأ أبو طلحة الأنصاري[1] سورة براءة حتى بلغ هذه الآية ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

١- هو: زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الخزرجي النجاري صاحب رسول الله ﷺ وأحد النقباء الإثني عشر ليلة العقبة مات سنة ٣٤هـ (سير أعلام النبلاء، ج٢ ص٢٧ وما بعدها).

تَعۡلَمُونَ ﴾[١] فقال: خفافاً وثقالاً أي شباباً وكهولاً، فقال بنوه: يرحمك الله قد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات، ومع أبى بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات فنحن نغزو عنك قال: لا جهزوني فغزا في البحر حتى مات رضي الله عنه وأرضاه[٢].

وقال الزهري[٣]: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو، وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنك عليل فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل، فإن لم يمكني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع[٤].

وما حدث مع هؤلاء الصحابة والتابعين حدث مع غيرهم؛ فسل التاريخ عن ياسر وعمار وسمية وخباب وصهيب وبلا... لسل عنهم في بدر وأحد وحمراء الأسد يوم أن قال لهم الناس: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَـٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾[٥]، ويوم تحزب الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَـٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴾[٦].. وما حدث في هذه الغزوات من المواقف الإيمانية والبطولية حدث مثله في اليرموك، وحطين، والقادسية وغيرها من المواقف والمواقع التي سجلها لنا التاريخ بصفحات من نور.

لقد كان شعار الواحد منهم رضي الله عنهم إذا سقط في ميدان

١- سورة التوبة: الآية ٤١.

٢-الجامع لأحكام القرآن للعلامة القرطبي: ج٥ ص٢٩٨٩ – ٢٩٩٠ ط دار الريان د.ت.

٣- هو: محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب القرشي الزهري المدني، ولد سنة ٥٠ ه وكان أحفظ أهل زمانه، توفي سنة ١٢٣ه وهو ابن ٧٢ سنة (سير أعلام النبلاء للذهبي: ج٥ ص٣٢٦ وما بعدها).

٤- الجامع لأحكام القرآن للعلامة القرطبي: ج٥ ص٢٩٨٩ – ٢٩٩٠.

٥- سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

٦- سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

المعركة شهيداً ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1]، وكان آخر يقول وهو يلفظ ألفاظه الأخيرة «غداً سألقى الأحبة محمداً وصحبه»، وكان ثالث يقول وهو يغالب في ساحات الشرف: «هذا يوم الفرح الأكبر»، وكان رابع يقول، وهو يسلم الروح إلى بارئها: «يا سعد، الجنة ورب النضر أجد ريحها من وراء أحد»، وهكذا كان الخامس والسادس مما لا يحصي عددهم إلا الله.

أعطوا ضريبتهم للدين من دمهم
والناس تزعم نصر الدين مجاناً
أعطوا ضريبتهم صبراً على محن
صاغت بلالاً وعماراً وسلمانا[2]

«لقد سمعوا هاتف الرحمن يهتف بهم ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3] فأصاخوا للنذير، وخرجوا عن كل شيء طيبة بذلك نفوسهم، راضية بذلك قلوبهم، يعانق أحدهم الموت وهو يهتف ركضاً إلى الله بغير زاد، ويبذل أحدهم المال كله قائلاً: «أبقيت لعيالي الله ورسوله»، ويخطر أحدهم والسيف على عنقه:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً
على أي جنب كان في الله مصرعي»[4].

١- سورة طه: الآية ٨٤.

٢- الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوي، ص١٦، وانظر: الإسلام والحب، د. عبد الله ناصح علوان، ص٢٨ دار السلام– الثانية ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

٣- سورة التوبة: الآية ٢٤.

٤- ماذا يعني انتمائي للإسلام: الأستاذ فتحي يكن، ص ١٢٧، ١٢٨ ط مؤسسة الرسالة الرابعة عشر ١٤٠٧هـ– ١٩٨٦م.

وإذا كان هذا هو شأن الجيل الأول من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، فإن ميدان التضحية والفداء ما زال حافلاً بالبطولات والتضحيات، فلقد شهد هذا العصر الذي نحياه نماذج من العطاء والتضحيات بالنفس والمال ينظر إليها المرء وكأنها أساطير، ولكنها الحقيقة التي هي أكبر من الخيال.

لقد شهدت ساحة الحرب في فلسطين نماذج وبطولات لرجال العقيدة ونسائها وشبابها وصبيانها نماذج لا تبعد كثيراً عن تضحيات الصحابة والتابعين، حيث يقدم الرجل والمرأة والشاب والشيخ حياته هبة في سبيل الله من أجل تطهير المسجد الأقصى من أيدى اليهود الغاصبين؛ ذلك لأنهم علموا أن المجتمع الذي يريد أن يبني مجداً ويشيد حضارة وينهض برسالة بحاجة إلى الإنسان الذي يعطي قبل أن يأخذ، ويؤدي الواجب قبل أن يطلب الحق.

ب- الوحدة والترابط:

لقد كان المجتمع الجاهلي قبل الإسلام «قبائل متناحرة متقاتلة لطالما تعثرت خطاها بأشواك الحياة الجافة، لا يجمعهم جامع، ولا يوحد صفوفهم موحد، حتى جاء الإسلام بعقيدته الوارفة، فجعلت منهم قوة موحدة بعد أن كانت قلوبهم شتى، وعداوتهم جاهرة، بأسهم بينهم شديد، حيث كان بينهم من الثارات، والمنازعات ما يستحيل معه الالتئام»[١].

يقول تعالى مُمتنّا على المسلمين بهذه النعمة؛ نعمة الاتحاد بعد التفرق ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾[٢].

١- الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوي: ص٢٥٤.

٢- سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

إن طبيعة الأمة الإسلامية تختلف عن سائر أمم الأرض، فهي ليست مجرد اجتماع مجموعة من الأفراد في مكان واحد وزمان، ولكنها أمة متفاعلة الأفراد، والله سبحانه وتعالى عندما أراد أن يعرِّف المسلمين أمتهم التي تجمعهم على مدار القرون والزمان «عرفها لهم في صورة أتباع الرسل في كل زمان، وقال لهم في نهاية استعراض هذه الأمم ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾[1] ولم يقل للعرب: إن أمتكم هي الأمة العربية في جاهليتها وإسلامها، ولم يقل لليهود: إن أمتكم هي بنو إسرائيل في جاهليتها وإسلامها، ولا قال لسلمان الفارسي: إن أمتك هي فارس، ولا قال لصهيب الرومي: إن أمتك هي الرومان، ولا قال لبلال: إن أمتك هي الحبشة، إنما قال للمسلمين من العرب، والروم والحبشة: إن أمتكم هي المسلمون الذين اعتنقوا عقيدة الوحدانية حقاً على أيام موسى وهارون وإبراهيم ولوط... فهذه أمة العقيدة الإسلامية في تعريف الله تعالى»[2].

ومما يجدر ذكره هنا أن أعداء الإسلام يدركون جيداً أن العقيدة الإسلامية هي أساس وحدة المسلمين وتماسكهم، وأن هذه الوحدة من أكبر العوائق التي تحول بين أطماعهم، ولذلك لما كانوا «بصدد تلك المعركة مع هذا المجتمع ولما كانوا بصدد هدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل لهم السيطرة عليه لم يفتهم أن يوهنوه من القاعدة التي يقوم عليها، وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد أصناماً تعبد من دون الله ظهرت على مراحل التاريخ باسم «القومية العربية» تارة، وتارة باسم «الشعوبية»، وباسم «الجنسية

١- سورة الأنبياء الآية: ٩٢.

٢- في ظلال القرآن، سيد قطب ج٤ ص١٨٩٢.

الطورانية تارة أخرى»، وغيرها من المعسكرات التي عملت، وما زالت تعمل في تخريب هذه القاعدة الصلبة التي كان عليها التجمع الإسلامي الفريد[1]..

ج- المحبة:

إن النفس الإنسانية بمجرد أن تتلاقى مع من يماثلها إيماناً وعقيدة «تشعر بالقرب والمحبة في أول لحظات اللقاء والتعارف، بخلاف النفس المنطوية على الخبث والمتأصلة على الفساد، فلا يمكن أن تتوافق مع النفس المؤمنة لكونهما متناكرتين روحاً، متنافرتين منهجاً، متباينتين أصلاً»[2].. قال تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[3].

يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: «إن العقيدة الإسلامية حين تخالط القلوب، تستميل إلى مزاج من الحب والألفة، تلين جاسيها، وتندى جفافها، فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، ونطق الجارحة، وخفقة القلب ترانيم من المحبة والألفة لا يعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب، لكأن هذه العقيدة تهتف بنداء الحب في الله، وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له، والالتقاء عليه»[4].

ومن هنا فقد اعتبر النبي ﷺ محبة المؤمنين جزءاً لا يتجزأ من

١- طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد فائز، ص٧٦، ٧٨ ط السابعة ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٢- حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان د. عبد الله ناصح علوان ص٢٤، ط دار السلام، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

٣- سورة الأنفال: الآية ٦٣.

٤- في ظلال القرآن، سيد قطب ج٣ ص١٥٨٤.

حقيقة الإيمان يقول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يؤمن[1] عبد حتى يحب لجاره أو قال لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

ففي هذا الحديث دلالة على أن كمال الإيمان لا يحصل إلا بكمال المحبة القائمة على الإخلاص لله تعالى، وأن المحبة ما هي إلا ثمرة من ثمرات الإيمان الصحيح... «فمن تقطعت أواصر المحبة بينه وبين إخوانه المؤمنين فعليه أن يفتش عن جانب الضعف الذي سبب له تلك القطيعة، وعليه أن يعالج ذلك الضعف الذي تعرض له في إيمانه حتى يستكمل الإيمان»[3].

ولما كانت المحبة على أساس عقدي لها أثر كبير في بناء المجتمع أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإعلانها في المجتمع فقال: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[4].

وتابع الرسول ﷺ هذا الأمر بنفسه؛ فعن أنس بن مالك أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر به رجل فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: «أَعْلَمْتَه؟» قال: لا، قال: «أعلمه». فلحقه فقال: إني لأحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني له»[5].

١- المراد بنفي الإيمان هنا نفى بلوغ حقيقته ونهايته (فيض القدير: المناوي ج٦ ص٤٤٢، ط دار الحديث، د.ت).

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه: ج١ ص٦٢، حديث رقم: (٧٢).

٣- قواعد البناء في المجتمع الإسلامي د. السيد الوكيل ص٢٥، مرجع سابق، وانظر: دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين – الشيخ محمد الغزالي ص١٤٠ ط دار الوفاء – الثانية ١٤١٠ هـ– ١٩٨٩م.

٤- أخرجه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في إعلام الحب، ج٧ ص٧١، حديث رقم: (٢٥٠٢) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

٥- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب إخبار الرجل الرجل بمحبته إياه، ج٤ ص٣٣٢، حديث رقم: (٥١٢٥)، وقال النووي في رياض الصالحين: صحيح، ص١٥٢، ط دار القلم – بيروت – لبنان، د.ت.

ومارس النبي ﷺ ذلك بنفسه؛ فعن معاذ بن جبل قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «إني لأحبك يا معاذ، فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: فلا تدع أن تقول في كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[1].

وإنما كانت هذه العناية الفائقة من النبي ﷺ في تعميم هذا الأثر – الحب في الله– لأنه يعلم يقيناً أن الحب في الله تعالى «يحول المر حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة، وهو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا، وهو إكسير القلوب، وروح الوجود، وصمام الأمان للجماعة المسلمة فإذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق أو تزول فقانون الحب في الله هو الذي يمسك العلاقات الإسلامية أن تتصادم فتحترق، وتستميل إلى دماء»[2].

ولك أن تتخيل مجتمعاً على هذه الدرجة من الحب والتفاني من سلامته ورقيه في مدارج العز والسعادة حيث يتزاور أفراده ويتواصلون ويتراحمون ويتواسون ويتفقد بعضهم بعضاً إلى غير ذلك مما يترتب على هذا الشعور النفسي من سلوكيات عملية من التعاون والترابط

١– رواه النسائي في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء بعد الذكر، ج٣ ص٥٣، ط المكتبة العلمية بيروت، د.ت.، وأخرجه ابن خزيمة في صحيحه، ج١ ص٣٦٩، حديث رقم: (٧٥١) ط المكتب الإسلامي – بيروت ١٣٩٠هـ– ١٩٧٠م، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، ابن حبان في صحيحه ج٥ ص٣٦٤، ح (٢٠٢٠)، وقال الحاكم في المستدرك: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي ج١ ص٢٧٣.

٢– الإيمان والحياة: د. يوسف القرضاوي، ص١٦٧.

والمحبة والتي على أساسها تنهض الأمم وتنشأ الحضارات.

د- انتشار الأمن في ربوع المجتمع:

إن وجود الأمن وانتشاره في المجتمع متعلق بوجود الإيمان واعتناقه «فنعمة الأمن كسائر النعم ترتبط بالإيمان بالله، والوقوف عند حدوده، وتطبيق شرائعه، وإلا زالت هذه النعمة وعانى الناس من الخوف والاضطراب والاحتراب البيني وتسلط الناس بعضهم على بعض حاكمين ومحكومين صراعا واحترابا على أعراض زائلة»[١].

والآيات القرآنية على كثرتها تؤكد هذه الحقيقة، وتبين أن الذين يسيرون على منهج الله هم الذين يتحقق لهم الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وأن أي خلل في دعم تلك العقيدة معناه إشاعة القلقلة والاضطرابات في المجتمع الإنساني.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ** ﴾[٢].. يقول صاحب الظلال في تفسيره لهذه الآية: «إنه إذا كان أحد قميناً بالخوف فليس هو المؤمن الذي يضع يده في يد الله، ويمضي في الطريق، ولكنه الذي يشرك بالله ما لا سلطان له ولا قوة»[٣].

وإلى هذا المعنى تشير آيات القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿**وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ** ﴾[٤]، وقوله عز وجل: ﴿ **بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ**

١- الحل في واحة العمل الإسلامي: علي متولي علي، ص ٢٩، ط دار الطباعة والنشر الإسلامية. وانظر: الأمن في الإسلام، د. أحمد عمر هاشم، ص٢٠، ط دار المنار، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٢- سورة الأنعام: الآية ٨٢.

٣- في ظلال القرآن: ج٢ ص١١٤٢.

٤- سورة الأنعام: الآية ٤٨.

مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[2].

وقد جاء في السنة المطهرة ما يفيد ذلك، قال ﷺ: «... والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم...»[3].. فهذه النصوص المباركة تبين أن الإيمان بالله تعالى وإسلام الوجه له واتباع منهجه القويم هو الذي يحقق لصاحبه الأمن في الدنيا والآخرة، فإيمان المجتمع إذن هو مصدر أمنه وأمانه، وكلما زاد إيمان المجتمع زاد أمنه واستقراره.

ولكن مما يؤسف له أن المجتمعات البشرية اليوم -إلا من رحم الله- ذهبت تتلمس الأمن في التقدم والرفاهية، وتطبيق الديمقراطية الغربية المزعومة فماذا كانت النتيجة؟ هل حققت لهم الأمن والطمأنينة والأمان؟ كلا بل ما زادهم الله إلا خوفاً وقلقاً، وهماً وغماً..

نعم لقد قذف الله في قلوبهم الرعب لأنهم لجأوا إلى غيره، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً[4].

إن الخوف الذي يخيم على البشرية في الوقت الحاضر من شرقها إلى غربها «لهو الطريقة الحتمية الطبيعية لتنكبها طريق الله... نعم إنها خرجت عن فطرتها، وتنكرت لسننها وتفلتت من النظام الذي يحكم سيرها...إنها صارت أشبه بجرم خرج عن مداره، فضلت طريقها وأسندت أمر توجيهها إلى هواها، فلا تلبث أن تصطدم بالأجرام

١- سورة البقرة الآية: ١١٢.

٢- سورة الأحقاف: الآية ١٣.

٣- جزء من حديث أخرجه ابن حبان في صحيحه: ج١ ص٤٠٦، حديث رقم: (١٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٤- انظر: مشكلتا الخوف والجوع وكيف عالجهما الإسلام، د. حسين شحاته: ص٤٥، ٤٦.

من حولها وعندئذ تدق نفسها وغيرها، ويشيع القلق والخوف أنحاء المعمورة...فإذا ما التزمت خط سيرها، فسيبقى الأمان حليفها، وإلى هذا المعنى أشار الشاعر محمد إقبال عندما ربط وجود الحياة الآمنة بوجود الإيمان فقال:

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحيى دينا[1].

فما أحوج المجتمعات البشرية في هذه الآونة إلى تطبيق منهج الله ليسدل عليها نعمة الأمن خاصة بعد تلك الصراعات التي صدعت الكثير من جسد هذه المجتمعات.

هـ - العزة:

إن العقيدة الصحيحة متى استقرت في القلب فإنها تحرر النفس من سيطرة الغير وترتقي به إلى أعلى منازل الأنفة وعزة النفس بما تلقيه في نفس المؤمن من أن الخلق جميعاً لا يملكون لأنفسهم شيئاً، ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئاً أراده الله مهما يكن حقيراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾[2].

ومن هنا حرم الإسلام على المسلم أن يهون أو يستذل لغيره «بل ورمى في قلبه القلق بكل ما يخدش كرامته، وعزته، ويحرج مكانه، ومن ثم دعاه دعوة قوية إلى أن يستقر في المكان الذي ينبت العز ويهب الحرية، فإن استحال ذلك فليتحول عن دار الهون ولينشد العزة في مكان آخر،

١- عقيدة التوحيد د. خضر سوندك، ص٤٣، ط دار المنار - الأردن - الزرقاء، الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

٢- سورة الحج: الآية ٧٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ﴾[1][2]. وإنما كانت هذه الدعوة القوية بالهجرة إلى المكان الذي ينبت العز؛ لأن طبيعة الحياة في المجتمع الإسلامي تحتاج إلى رجال أحرار لا تستذلهم شهوات نفوسهم، ولا تستعبدهم إرادة الجبارين.. فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا في مجتمع الإسلام أعرابياً أميًّا من البداوة والحفاة مثل ربعي بن عامر[3] حين باشرت عقيدة التوحيد قلبه، يقف أمام رستم وهو في هبله وهيلمانه، وبما حوله من خدم وحشم، وما يتوهج بجواره من فضة، حتى إذا سأله رستم: من أنتم؟ فيجيب بعزة شامخة: نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل»[4].

إنه الإيمان بالله تعالى الذي «رفع رأسهم وأقام صفحة عنقهم فلم تحنَ لغير الله أبداً لا لملك جبار ولا لِحَبْر من الأحبار ولا لرئيس ديني ولا دنيوي وملأ قلوبهم وعيونهم بكبرياء الله وعظمته، فهانت وجوه الخلق وزخارف الدنيا ومظاهر العظمة والفخفخة، فإذا نظروا إلى الملوك وحشمهم وما هم فيه من ترف ونعيم وزينة وزخرف فكأنهم ينظرون إلى صور ودمى قد كسيت ملابس الإنسان»[5].

١- سورة النساء: الآية ٩٧.

٢- خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالي، ص٢٠١، ط دار الكتب الإسلامية - الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٣- هو: ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، كان عمر أمّد به المثنى بن حارثة، وكان من أشراف العرب وأحد القادة في الجيش الذي وجهه عمر إلى العراق ولاه الأحنف لما فتح خراسان على طخارستان لأنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة (الإصابة لابن حجر: ج١ ص٥٠٣).

٤- البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير: ج٣ ص٤٠.

٥- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟: أبو الحسن الندوي، ص٨٩، ط مكتبة الإيمان د.ت.

والحق أن العزة التي وهبها الإسلام للمسلمين ليست هي العزة بالإثم والاستعلاء والكبرياء، وإنما عزة تقوم على التواضع للمؤمنين ولتذل أنوف الكافرين المتكبرين، وتحطم صلف الذين يلبسون ثوب الكبرياء، فلا يجعل لهم سطوة على الضعفاء، ولا يهضمون حقوق البسطاء الكادحين.

ومما يجدر ذكره أن بعض الألسنة الذربة قد انطلقت من عقالها تردد بأن العقيدة الإسلامية هي السبب في وقوع المسلمين تحت سيطرة الغير حتى صاروا اليوم هم الأذلة في الأرض، وأن العزة والغلبة لغيرهم ممن لا ينتمون إلى الإسلام، فلو كانت عقيدة التوحيد مبعدة لهم حقاً عن الذلة لما وجدناهم اليوم فيما هم فيه من الذلة والصغار..

والجواب على ذلك بالتسليم بأصل الاعتراض من حيث حال المسلمين اليوم، ولكن ليس ذلك إلا لأنهم ابتعدوا عن الإسلام، وعقيدته الوارفة.

والقرآن الكريم حين بين طريق العزة ولمن تكون؟ قال: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[1].. فهذه الآية الكريمة توضح أن العزة لا تكون إلا لله، ومن ثم لا يجوز طلبها من مخلوق مهما كان مركزه أو جاهه، وأن طريق العزة يكون بالإيمان والعمل الصالح..

ولذلك يندد الله تعالى بالمشركين الذين يطلبون العزة الزائفة التي لا أساس لها من معبوداتهم التي لا تنفع ولا تضر، قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾[2]..

كما ندد القرآن بهذا الصنف الذي آمن بلسانه وراح ينشد العزة في غير مصدرها الحقيقي فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ

١- سورة فاطر: الآية ١٠.

٢- سورة مريم: الآية ٨١.

مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[1]، فإذا كان طريق العزة هو الإيمان بالله تعالى، فإن فقدانه يوقع صاحبه في المذلة والهوان.

و- القوة:

إن العقيدة الإسلامية متى استقرت في النفس ورسخت في القلب جعلت صاحبها إذا تكلم «كان قوياً في حجته وبيانه، وإذا كلف بعمل من الأعمال كان قوياً في أدائه بالطريقة التي تجعله ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، وإذا اتجه إلى سلوك ما كان واضحاً في سلوكه قوياً في أخذه وعطائه، وتلك هي القوة التي جعلت الأنبياء يقول كل واحد منهم لمخالفيه ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2]، وهذه العقيدة هي التي جعلت أتباع الرسل في كل زمان ومكان يقفون بجانب الحق، ويدافعون عنه بكل قوة، لذا مدحهم الله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[3] [4].

ومن هنا فإن القوة الحقيقية لأمة الإسلام ليست في جيوشها الزاحفة، ولا في أسلحتها اللامعة، ولا في جنودها المتأنقين بل قوتها هي «تلك القوة الروحية التي تفتح العالم، إذ المؤمن لا يرجو إلا الله، ولا يخشى إلا عذابه، إنه قوي وإن لم يكن في يديه سلاح أو وراءه عشيرة وأتباع، فهو بعقيدته أقوى من البحر والموج والرياح؛ ذلك لأن وفرة

١- سورة النساء: الآية ١٣٩.

٢- سورة الأنعام: الآية ١٣٥.

٣- سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

٤- العقيدة والأخلاق د. محمد سيد طنطاوي ص٢٨٩، ٢٩٠ ط دار السعادة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

القوة المعنوية تتلاقى مع قلة الأسباب المادية، ولكن وفرة الأسباب لا تعوض عما يفوت من القوة المعنوية»[١].

ومن هنا فإن المجتمعات التي تنطلق في الحياة باسم الرذيلة وباسم القوة المادية، والأسلحة النووية فإنها سرعان ما تضعف وتنهار أمام مجتمع العقيدة، إذ المجتمع القوي حقاً هو الذي يستمد قوته من المصدر القوي وهو الله، فبقدر إيمان المجتمع وتمسكه بالعقيدة الإسلامية، يكون نصيبه الأوفى من هذه القوة.

١- نحن والحضارة الغربية الأستاذ: أبو الأعلى المودودي ص٢٧٨ ط الدار السعودية ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

المبحث الثاني

الأخلاق

إن الأخـلاق الكريمة هي أهـم شيء يمتلكه الإنسان ويتميز به ﴿في﴾ الحياة، بل هي روح المجتمع، إذ لا قيمة لمجتمع غير محاط بسياج من الأخلاق الكريمة التي لو عاش في ظلها لعاش في دوحة من الفضيلة، ورياض زاهرة من الحق والخير.

ومن هنا، كانت الأخلاق الفاضلة من أهم الأسس التي اعتمد عليها الأنبياء في بناء مجتمعاتهم وصلاحها، فما من نبى ولا رسول إلا وساهم في بناء ذلك الصرح الشامل الذي تتكون به المجتمعات الإنسانية النبيلة، ولقد جاء النبي ﷺ من بعدهم فأتم ما بدءوا، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

فلا قيام إذن لمجتمع، ولا ائتلاف بين أفـراده إلا على بنيان من الفضائل، ومن هنا جاء الحديث عن الأخلاق كأساس من الأسس التي قام عليها النظام الاجتماعي في الإسلام.

وسيدور الحديث - إن شاء الله - في هذا المبحث حول المطالب الآتية:

١- المطلب الأول: حال المجتمع الجاهلي خلقياً قبل الإسلام.

٢- المطلب الثاني: مصدر الأخلاق الإسلامية.

٣- المطلب الثالث: مكانة الأخلاق في الإسلام.

٤- المطلب الرابع: خصائص الأخلاق الإسلامية.

١- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق، ج٢ ص٩٠٤، حديث رقم (٨). وقال المعلق: قال ابن عبد البر: هو حديث صحيح متصل، ط دار إحياء الكتب العربية، د٠ت.

٥- المطلب الخامس: أهمية الأخلاق في بناء المجتمع.

٦- المطلب السادس: وسائل اكتساب الأخلاق.

٧- المطلب السابع: مسئولية المجتمع المسلم في الحفاظ على الأخلاق.

المطلب الأول: حال المجتمع الجاهلي خلقياً قبل الإسلام.

كانت الحالة الأخلاقية للعرب قبل الإسلام في الدرك الأسفل في ومختلف الميادين، حيث تحول المجتمع الجاهلي إلى غابة شرسة لا تعرف إلا لغة الانحلال الخلقي، والفوضى الاجتماعية، وكانت هذه الحالة شيئاً طبيعياً نتيجة انحراف المجتمع عن فطرته وتنكره لدين الله تعالى، فالعرب «وإن كانوا متمسكين ببعض الفضائل الأخلاقية كالكرم والمروءة والشجاعة وغيرها إلا أنه لم يكن لديهم معايير للفضيلة، ولا موازين للأخلاق ولا مقاييس للخير، ولا مفاهيم صحيحة للحسن والقبح، فقد كان التظالم فاشياً في المجتمع العربي يعبر عنه القول المتعارف «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، ويعبر عنه قول الشاعر:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخره كذلك، يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي بجملته كالذي يقول طرفة بن العبد:

فلولا ثلاث هن من زينة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عوّدى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كُمَيّت متى ما تعل بالماء تزبد[1]

كما كانت الحروب الطويلة تنشب لأتفه الأسباب؛ كالحرب التي وقعت بين قبيلتي بكر وتغلب ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة وما ذاك إلا أن كليبا رئيس معد رمى ضرع ناقة البسوس بنت منقذ

١- في ظلال القرآن: الشيخ سيد قطب: ج٢ ص١٠٠٧.

فاختلط دمها بلبنها، وقتل جساس بن مرة كليبا، واشتبكت الحرب بين بكر وتغلب، وكان كما قال المهلهل: أخو كليب: «قد فنى الحياة، وثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، دموع لا ترقأ، وأجساد لا تدفن»[1].

فهذه الصورة الأخلاقية الهابطة ما هي إلا «علامة فراغ من الاهتمامات الكبيرة التي تشغلهم عن تفريغ الطاقة في هذه الملابسات الصغيرة إذ لم تكن لهم رسالة للحياة، ولا فكرة للبشرية، ولا دور للإنسانية يشغلهم عن هذه السفساف، ولم تكن هناك عقيدة تطهرهم من هذه الأرجاس الاجتماعية الذميمة، وماذا يكون الناس من غير عقيدة؟ وماذا تكون أخلاقهم؟!»[2].

المطلب الثاني: مصدر الأخلاق الإسلامية وصلتها بالإيمان

١- مصدر الأخلاق الإسلامية:

قامت الأخلاق الإسلامية على مصدرين أساسيين: هما القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذا من فضل الله علينا؛ حيث جعل لنا مرجعاً ندرك من خلاله حسن الأخلاق وقبحها، ولم يتركنا إلى نفوسنا التي تضل وتخطئ، ولا إلى عقولنا التي قد تشرد وتضطرب، ولا إلى عرف المجتمع وتقاليده التي تتبدل في معظم الأحوال والأزمان.

فالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه «هو مفرق الحق والباطل في الأخلاق، وهو الميزان الذي تقاس به الأمور السلوكية جميعاً يستبين ذلك من خلال آياته التي قد ميزت بين الخير والشر، وبين الفضيلة والرذيلة»[3].. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ

١- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: لأبى الحسن الندوي ص٦٢.

٢- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج١ ص٥١٠.

٣- دراسات في الثقافة الإسلامية د. أمير عبد العزيز: ص٣٢٧.

أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾[1] فهذه الآية الكريمة مفادها أن المسلمين لو تمسكوا بهذا القرآن وعملوا بما فيه فإنهم سيجدون فيه منبعثاً ثرياً للقيم والمثل الأخلاقية العالية.

وأما السنة النبوية فلها الدور البارز في تأسيس الأخلاق وتنميتها في المجتمع «فهي تأتي بعد القرآن إن لم تعادله في الأهمية وذلك من حيث التمييز بين الخصائص الحميدة والذميمة في السلوك، والنبي ﷺ هو القدوة الحسنة في سلوكه وأخلاقه، وهو عليه السلام في تصرفاته القولية والفعلية والوصفية يعتبر مقياساً حقيقياً فيما هو فاضل أو غير فاضل، وفيما هو محمود ومذموم[2].. قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾[3].. فالإسلام إذن لم يحصر علمنا بالأخلاق على العقل والهوى أو على عرف المجتمع وتقاليده حتى تتغير أحكامنا الخلقية بتغير هذه الأشياء ولكن: «منحنا مرجعاً ثابت الأركان يزودنا بالتعاليم الخلقية في كل حال وزمان، هذه التعاليم هي التي ترشدنا إلى الطريق الأقوم وتضيئ لنا الخطة المستقيمة في شئون الحياة من أتفه المسائل البيتية إلى المسائل السياسية الدولية العظيمة ومشاكلها الخطيرة، ونجد فيها انطباقاً متسعاً لأصول الأخلاق على شئون الحياة المختلفة لا نحتاج بعده في مرحلة من مراحل الحياة إلى وسيلة أخرى للعلم»[4].

٢- صلة الأخلاق بالإيمان:

ربط الإسلام بين الإيمان والأخلاق ربطاً وثيقاً بحيث لا يستغني أحدهما عن الآخر، فالإيمان بلا خلق كشجرة بلا ظل ولا ثمرة، والخلق

١- سورة الإسراء الآية: ٩.

٢- دراسات في الثقافة الإسلامية د.أمير عبد العزيز: ص٣٢٨.

٣- سورة الأحزاب الآية: ٢١.

٤- نظام الحياة في الإسلام: أبو الأعلى المودودي، ص١٦، ط دار الدعوة، د. ت.

دون إيمان كظل لشبح غير مستقر. وهذا المعنى يبدو واضحاً من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة، فإن مقتضى الإيمان بالله أن يكون المؤمن ذا خلق محمود، وأن الأخلاق المذمومة دليل على عدم وجود الإيمان أو ضعفه.

والمتأمل في القرآن الكريم حينما يطالب بالخلق الكريم، وينهى عن الخلق السيء يجد أنه يذكر قبل المطلب وصف الإيمان للإشارة إلى أن ذلك من مقتضيات الإيمان.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1].. فقد جاء الوصف بالإيمان قبل الأمر بالعدل للإشارة إلى أن العدل من مقتضى الإيمان.

وقد بين الرسول ﷺ هذه الصلة القوية بين الإيمان والأخلاق في كثير من أحاديثه ومن ذلك قوله ﷺ: «الحياء من الإيمان»[2].. وهذا الحديث يفيد:

أ- أن الإيمان يورث الأخلاق الحسنة ومنها هذا الخلق القويم «الحياء».

ب-أن من مقتضى الإيمان أن يكون المؤمن حيياً.

كما بين النبي ﷺ أن الأخلاق الفاضلة دليل على كمال إيمان من يتحلى بها.. فعن عائشة -رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ:

١- سورة المائدة الآية: ٨.

٢- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، جا ص،٩٤، حديث رقم: (٢٤)، (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

«إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله»[1].

وهكذا يتبين مدى الصلة الوثيقة بين الأخلاق والإيمان، فهي صلة التابع بمتبوعه، أو الفرع بأصله لا ينفك عنه بحال.

المطلب الثالث- مكانة الأخلاق في الإسلام.

تحتل الأخلاق في الإسلام مكانة عظيمة لا تصل إليها في أي دين آخر، أو مذهب من المذاهب الوضعية قديماً كان أو حديثاً «فلئن اختلفت مذاهب العالم في الأخلاق واختلفت فيها اهتماماتهم، فإن السمة الواضحة في هذه المذاهب وتلك الاهتمامات أنهم لا يضعونها في المنزلة والمكانة التي يضعها الإسلام، حيث صاغها على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وجعلها أساساً للبناء كله»[2].. فالأخلاق بشمولها وتعدد جوانبها هي صورة حقيقية للعقيدة الإسلامية.

ولأجل هذه المكانة التي وضعها الإسلام للأخلاق، كانت «التعاليم الإسلامية تستهدف تحقيق الخلق العالي والأدب الرفيع، فالعقيدة من إيمان بالله وتقديس له من شأنها أن توقظ حواس الخير، وتربي ملكة المراقبة. وجميع عبادات الإسلام ومعاملاته وكل أوامر الله ونواهيه إنما تتجه هذا الاتجاه، وتدور في هذا الفلك.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3].. فهذه الآية الكريمة تقرر أن الغاية من إنزال الكتب وإرسال الرسل هي إقامة الحق والعدل في الأرض»[4].

١- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب في استكمال الإيمان والزيادة والنقصان، ج٤ ص١٢٢، حديث رقم: (٢٧٤٣)، وقال: هذا حديث حسن.

٢- أساليب الغزو الفكري د. على محمد جريشة، ص٢١٩، ط دار الاعتصام – القاهرة، د.ت.

٣- سورة الحديد الآية: ٢٥.

٤- دعوة الإسلام، السيد سابق، ص١٢١، ط دار الفكر ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م.

وإذا كان الأمر كذلك فلا عجب إذا رأينا النصوص من القرآن والسنة تترى مبينة مكانة الأخلاق في دين الله تعالى ومكانة المتخلقين بها.

أما القرآن فقد اشتمل على مبادئ خلقية كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].. «فقد قرنت هذه الآية الكريمة بين العقائد من الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وبين الشعائر من الصلاة والزكاة والأخلاق من إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى، والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس، وجعلت هذا المزيج المتناسق هو حقيقة البر وحقيقة التدين وحقيقة التقوى كما يريدها الله»[2]..

ويطول بنا الحديث لو أردنا أن نتتبع آيات الأخلاق في القرآن الكريم، وإلا فالقرآن بسوره المكية والمدنية مليء بالآيات التي تقدم نماذج أخلاقية كريمة.

أما عن مكانة الأخلاق في السنة:

فقد تبوأت الأخلاق في السنة مقعد صدق، ومنزلة رفيعة حيث إن النبي ﷺ كان شغوفاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة بحيث «لو جمعنا أقوال صاحب الرسالة في التحلي بالأخلاق الزاكية لخرجنا

١- سورة البقرة الآية: ١٧٧.

٢- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي، ص٩٢.

بسفر لا يُعْرف مثله لعظيم من أئمة الإصلاح»[1].

وتظهر هذه المكانة من وجوه كثيرة نذكر منها ما يأتي:

١- تعليل رسالة النبي ﷺ بتقويم الأخلاق فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[2].

٢- ربط النبي ﷺ حسن الخلق بالإيمان ربطاً وثيقاً فقد سئل النبي ﷺ أي المؤمنين أكمل إيماناً؟ قال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»[3].

٣- يتفاوت المؤمنون في الظفر بحب رسول الله ﷺ وقربهم منه يوم القيامة، وأكثرهم ظفراً بحب رسول الله ﷺ والقرب منه أولئك الذين حسنت أخلاقهم حتى صاروا فيها أحسن من غيرهم، قال ﷺ:«إن من أحبكم إلي أحسنكم أخلاقاً»[4].

٤- جعل النبي ﷺ حسن الخلق أعظم نعمة، وأفضل عطاء يمكن أن يعطى للإنسان، فعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال شهدت النبيﷺ والأعراب يسألونه: يا رسول الله هل علينا جناح في كذا؟ مرتين، فقال: «عباد الله، وضع الله الحرج إلا امرؤ اقترض من عرض أخيه شيئاً»، قالوا: يا رسول الله فهل علينا جناح أن نتداوى؟ فقال: «تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواءً»، قالوا: يا رسول الله فما خير ما أعطي العبد؟ قال:«خلق حسن»[5].

١- خلق المسلم، الشيخ محمد الغزال، ص١٣.

٢- سبق تخريجه.

٣- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، باب معاشرة الزوجين، ج٦ ص١٨٨، حديث رقم: (٤١٦٤)، والترمذي في سننه، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، ج٣ ص٤٦٦، وقال: حسن صحيح.

٤- جزء من حديث أخرجه البخاري في الفتح، كتاب المناقب، باب مناقب ابن مسعود، ج٧ ص٢٢٨، حديث رقم: (٧٥٩)، (فتح الباري).

٥- أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الطب، باب الأمر بالتداوي ج٧ ص٦٢١، حديث رقم: (٦٠٢٩)، وصححه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ج٢ ص١٣٨.

٥- حث النبي ﷺ على أن تقوم العلاقة بين المسلمين على أساس من حسن الخلق، وأمر المسلمين أن ينطلقوا في علاقتهم مع بعضهم على هذا الأساس القويم فعن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١].

المطلب الرابع- أهمية الأخلاق في بناء المجتمع:

للأخلاق الإسلامية أهمية بالغة في بناء المجتمع وصلاحه فهي «ضرورة اجتماعية لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار»[٢].

فالمجتمع لا يمكن أن يحفظ وحدته وتماسكه ما لم تربط بين أفراده روابط متينة من الأخلاق الكريمة، ذلك لأن الأخلاق «تمس ناحية دقيقة في حياة المجتمعات، ففيها تتمثل أعمق العلاقات التي تربط الأفراد بعضهم ببعض وأسمى المظاهر التي يمتاز بها الإنسان وتمتاز بها حضارته»[٣].

ولقد شهد التاريخ على أن صلاح أي مجتمع أو فساده مرتبط بصلاح الأخلاق وفسادها، وأن هلاك المجتمعات السالفة إنما كان مرجعه فقدان العنصر الأخلاقي من حياتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[٤].

١- رواه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرة الناس ج٣ ص٢٣٩، حديث رقم: (٢٠٥٣) وقال حسن صحيح.

٢- الوجيزة في الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن حبنكة الميداني، ص٣٣، ط مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤١٨هـ -١٩٩٧م.

٣- بحوث في الإسلام والاجتماع، د. على عبد الواحد وافي، ص٩٦، ط هيئة مصر – الأولى، د.ت.

٤- سورة هود الآية: ١١٧.

فهذه الآية «تبين ارتباطاً وثيقاً بين بقاء المجتمع وعدم سقوطه من جانب، ومباشرة أفراده لمنهج السلوك المستقيم من جانب آخر، وهذا الارتباط هو قانون اجتماعي مفاده بقاء المجتمع وضمان استقراره بأداء كل فرد فيه ما يجب عليه من أخلاق حسنة»[1].

وحتى ندرك أثر الأخلاق السيئة في تدمير المجتمعات وهلاكها، فقد عرض علينا القرآن قصة قوم لوط الذين لم يلتزموا بمكارم الأخلاق، بل كانوا يتسابقون على فعل الفاحشة على مرأى ومسمع من الجميع فقال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[2]، ورفض القوم هذه الدعوة الطاهرة ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[3]، واستعجلوا ما توعدهم به من العذاب ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[4]، ولما لم يجد فيهم رشيداً يقدر قيمة الطهارة في صيانة المجتمع ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[5]، كانت نتيجة المعصية والفاحشة ما ذكره الله ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾[6].

وأكد القرآن أن هذا العذاب يترصد كل ظالم يلتمس طريقهم،

١- القرآن والمجتمع، د. محمد البهي، ص١١٧، ط دار غريب القاهرة، ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦ م.

٢- سورة النمل الآيتان: ٥٤، ٥٥.

٣- سورة النمل الآية: ٥٦.

٤- سورة العنكبوت الآية: ٢٩.

٥- سورة العنكبوت الآية: ٣٠.

٦- سورة النمل الآيتان: ٥٧، ٥٨.

ويسير في غيه مثلهم، فيقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾[1]، [2].

ويحذر النبي ﷺ من مثل هذا المصير للمجتمع الإسلامي فيقول عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل بأسهم بينهم»[3].

ومن هنا يتبين أن الأخلاق الكريمة تمثل معاقد الترابط والتماسك بين أفراد المجتمع، وأنه «متى انعدمت هذه المعاقد أو انكسرت في الأفراد لم تجد الروابط الاجتماعية مكاناً تنعقد به، ومتى فقدت الروابط الاجتماعية صارت الملايين في الأمة منحلة عن بعضها مزودة بقوة الأفراد فيها لا بقوة الجماعة، بل ربما كانت قواها المبعثرة مضافة إلى قوة عدوها ضدها وذلك بالتصادم الداخلي والبأس الذي يقع فيما بينها»[4].

١- سورة هود الآية: ٨٢، ٨٣.

٢- عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي، د عبد الرحمن البر: ص٣٢.

٣- أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ج ٢ ص١٣٣٣ ح (٤٠١٩)، وفي الزوائد للبوصيري هذا حديث صالح للعمل به.

٤- أجنحة المكر الثلاثة، عبد الرحمن حبنكة الميداني ص٣٩٥، ط دار القلم – دمشق السابعة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

فلا عجب بعد ذلك أن تنطلق الدعوات العريضة من الأجهزة التي يوجهها أصحاب المصالح المادية لتدمير الحياة الإنسانية، وذلك بإشاعة الانحلال الأخلاقي...

وهكذا أضحت وسائل الإعلام، في الغالب، معولاً هداماً، وعاملاً كبيراً في تفسخ المجتمعات، وضياع أخلاقها، فكانت النتيجة لذلك أن تحطمت أخلاق المسلمين في هذا العصر إلا من رحم الله.

المطلب الخامس: وسائل اكتساب الأخلاق.

لا شك أن الأخلاق بنوعيها الحسن والقبيح قابلة للتقويم[1] بدليل أن القرآن الكريم أمر بالتخلق بالأخلاق الحسنة، ونهى عن التخلق بالأخلاق القبيحة.. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[2].

فلو لم يكن ذلك في مقدور الإنسان لما جاء به القرآن الكريم، لأن الله تعالى لا يأمر بالمستحيل. وعلى ذلك فهناك وسائل كثيرة لتقويم الأخلاق واكتساب الكريم منها والتخلي عن الرديء، ومن أهم هذه الوسائل ما يلي:

١- العلم:

إن العلم وسيلة إيجابية لنشر الوعي في المجتمع، ويقصد به هنا معرفة الأخلاق الكريمة التي أمر بها الإسلام وأنواع الأخلاق الرذيلة التي نهى عنها حيثما كانت. ومن هنا فإن وجود هذا العلم ضروري في المجتمع «لأنه بدونه لا يدري المسلم بأي خلق يتخلق، ومن أي خلق يتجرد، وقد كفى الإسلام المسلم مؤنة البحث والاستنباط، فقد فصَّل

١- للمزيد في هذا يراجع: إحياء علوم الدين، الإمام أبو حامد الغزالي، ج ٣ص٨٢، وانظر: أخلاقية الداعية د. عبد الله ناصح علوان، ص ٩-١٢، ط دار السلام بيروت، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.

٢- سورة الشمس الآيات: ٧ - ١٠.

الأخلاق بنوعيها وما على المسلم إلا أن يعرض نفسه على الأخلاق بنوعيها ليعرف موضعه منها، ثم يعمل جاهداً لتكون أخلاقه إسلامية حقاً»[1].

ومن هنا ندرك أن المجتمع الذي يحرم من وسيلة العلم مجتمع لا يستطيع أن يميز بين طيب الفعال وخبيثها، ومن ثم تكون النتيجة هلاك هذا المجتمع ودماره.

٢-القدوة الحسنة:

إن حسن الخلق لا يؤسس في المجتمع عن طريق الأقوال وحدها، وإنما يتأتى عن طريق الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة أيضاً؛ لأن النفوس «لا يكفى في طبعها على الفضائل أن يقول المعلم لغيره افعل كذا أو لا تفعل، فالتأديب المثمر يحتاج إلى تربية طويلة ويتطلب تعاهدا مستمرا، ولن تصلح تربية إلا إذا اعتمدت على الأسوة الحسنة، فالرجل السيء لا يترك في النفوس من حوله أثراً طيباً، وإنما يتوقع الأثر الطيب ممن تمتد العيون إلى شخصه فيردعها أدبه ويسبيها نبله وتقتبس – بالإعجاب المحض – من خلاله وتمشي بالمحبة الخالصة في آثاره»[2].

وخير القدوة رسولنا ﷺ؛ فقد كان بين أصحابه قدوة عملية يدعو إلى الأخلاق الكريمة بسيرته قبل أن يدعو إليها بما يقول من حكم وعظات، فما على المسلمين أفراداً وجماعات إلا أن يقرؤوا سيرته العطرة، وأخلاقه الكريمة، فسيجدون كنزاً مرصوصاً من الأخلاق القولية والعملية التي ينبغي على كل إنسان أن يتمسك بها. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[3].

١- أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان: ص٩٠.

٢- خلق المسلم، محمد الغزالي ص١٣، وانظر: القدوة على طريق الدعوة، مصطفى مشهور ص٣١، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية. مع الله دراسات في الدعوة والداعية، محمد الغزالي: ص٢٦٢.

٣- سورة الأحزاب الآية: ٢١.

ومن هنا يتبين أن القدوة الحسنة من أبلغ الوسائل لترقية المجتمعات المسلمة وصعودها في سلم الكمال الخلقي حيث يسري أثرها الحسن على المجتمع قوة، أما القدوة السيئة فإنها تشجع على الرذيلة وتصل بالمجتمعات إلى حد الدمار حيث يسري أثرها السيء على المجتمع وهناً وضعفاً.

٣- التدريب العملي والرياضة النفسية:

«وذكر أن الممارسة التطبيقية ولو مع التكليف في أول الأمر، وقسر النفس على غير ما تهوى من الأمور التي تكسب النفس الإنسانية الخلق الطيب طال الزمن أو قصر. وهذا المسلك يحتاج إلى تكرار ودوام حتى ينتج أثره، وهذا الدوام يستلزم الصبر، وهو ضروري في هذه الحالة ضرورته للمريض الذي يتناول الدواء المر، فإذا صبر وداوم انقادت النفس، وألفت الفعل حتى يصبح الفعل لها سجية، وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله»[١] [٢].

٤-هجر البيئات الفاسدة والاستقرار في البيئات الطيبة:

وذلك بمخالطة المؤمنين ذوي الأخلاق الحسنة ومجالستهم؛ لأن الإنسان يكتسب من البيئة التي يعيش فيها – في الغالب – ما لديها من أخلاق وعادات، ولذلك كان توجيه النبي ﷺ للصحابة: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»[٣].

١- أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، ج ٣ ص ٤٠٨، ح (١٤٦٩) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٢- منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع د. محمد السيد يوسف: ص٢٠٦.

٣- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، ج ٤ ص٢٥٩، حديث رقم: (٤٨٣٢)، وأخرجه ابن حبان في صحيحه، ج ٢ ص٣١٤، حديث رقم: (٥٥٤)، والترمذي، كتاب الزهد، حديث رقم: (٢٥٧٤) وقال حديث حسن.

وقد جاء في السنة المطهرة أيضا ما يفيد هجر البيئة الفاسدة والفرار منها، ومن ذلك ما أخبر به النبي ﷺ من حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة. انطلق إلى أرض كذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء...»[1]. فلا يجوز للمسلم «التعرض إلى البيئة الفاسدة ذات الناس الفاسدين بحجة أنه متين الأخلاق، ولا يخشى عليه التأثُّر بهم أو بها، فإن هذا غرور، ووهم، ومثاله مثال من يتعرض إلى المكان الموبوء بمرض السل ونحوه بدعوى أنه قوي البنية»[2].

ومن هنا يتبين ضرورة التحول من البيئات الفاسدة إلى البيئات الصالحة؛ لأن ذلك أدعى إلى الاستقامة والبعد عن الانحراف الأخلاقي، مع تقرير المبدأ الأخلاقي القاضي بأن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير وأجدى.

المطلب السادس: مسئولية المجتمع المسلم في الحفاظ على الأخلاق.

إن المجتمع المسلم مسئول عن كل فرد من أفراده، ومن ثم ينبغي ألا يسمح لأى فرد أن يقترف أي سلوك خلقي يتنافى مع الأخلاق الإسلامية، لأن أي فساد يصدر من إنسان مثله كمثل المرض المعدي لا يقتصر ضرره على صاحبه، بل ينتقل إلى الآخرين من أبناء مجتمعه، وهذا واضح في قول الله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[3].

١- جزء من حديث طويل أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ج ٦ ص٦١٤حديث رقم: (٣٤٦٥) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٢- أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان: ص٩٤.

٣- سورة الأنفال الآية: ٢٥.

وهذه المسئولية التي وضعها الإسلام على عاتق المجتمع المسلم فيما يتعلق بالأخلاق تتمثل في مهمة ذات ثلاث شعب:

١-التوجيه ٢-التثبيت ٣-الحماية

فالتوجيه يكون بالنشر والدعاية ومختلف وسائل الإعلام والتثقيف والدعوة والإرشاد، والتثبيت يكون بالتعليم طويل المدى والتربية عميقة الجذور على مستوى الأسرة والمدرسة والجامعة...إلخ. والحماية تكون بأمرين:

أ-برقابة الرأي العام اليقظ الذي يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويكره الفساد وينفر منه.

ب- وبالتشريع الذي يمنع الفساد قبل وقوعه، ويعاقب عليه بعد وقوعه زجراً للمنحرف، وتطهيراً لجو الجماعة من التلويث، وبهذه الأمور تسود أخلاق الإسلام، وتسري فضائله في حياة المجتمع سريان العصارة الحية في الغصون والأوراق»[١]. وبهذا يتبين مدى المسئولية الضخمة التي وضعها الإسلام على كاهل المجتمع المسلم لصيانة أخلاقه ونشرها في ربوع الأرض.

١- ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده د. يوسف القرضاوي: ص٩٦، ٩٧.



الفصل الثاني

الأسس العملية للنظام الاجتماعي في ضوء الكتاب والسنة

المبحث الأول

العبادة الفاعلة في المجتمع

العبادة الإسلامية هي الأساس الثاني – بعد العقيدة الإسلامية – الذي لا بد منه لقيام المجتمع المسلم، فرضها الله على المسلمين وكلفهم بها ليعبروا بها عن حقيقة إيمانهم، ولا عجب فهي المترجم الأصيل للعقيدة الإسلامية حيث تنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الخاشع.

المطلب الأول: العبادة هي الغاية من هذا الوجود.

إن الناظر في هذا الكون الفسيح الذي نحيا فيه، يرى كل شيء فيه خُلِقَ لغاية؛ فنحن نرى مثلاً الماء للأرض، والأرض للنبات، والنبات للحيوان، والحيوان للإنسان، أما الإنسان فقد خلقه الله لغاية سامية ومهمة نبيلة صرحت بها آيات القرآن الكريم في أكثر من موضع ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾[1]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[3].

فهذه الآيات الكريمة «تحتوي على بيان حقيقة ضخمة هائلة من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيفائها سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها. هذه الحقيقة هي أن هناك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة من قام بها وأداها فقد

١- سورة التوبة الآية: ٣١.

٢- سورة الذاريات الآية: ٥٦.

٣- سورة البينة الآية: ٥.

حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد خاوية من معناها الأصيل الذي تستمد منه قيمتها الأولى، هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن بالإنس بناموس الوجود هي العبادة لله أو هي العبودية لله»[١].

ولأجل أن تصل المجتمعات الإنسانية إلى هذه الغاية، سخر الله تعالى للإنسان كل شيء في هذا الوجود لخدمته، وتيسير أموره. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢]، وقال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[٣].

كما أمد الله الإنسان بالعقل وزوده بالوحى حتى يكون أهلاً لحمل مسئولية العبادة.. قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٤].

ولما كانت العبادة هي الغاية من هذا الوجود كان «التركيز في كل رسالة على أمر واحد هو تعبيد الناس كلهم لربهم وحده ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[٥]، ذلك أن هذه العبودية لله الواحد ونزع السلطان كله من الطواغيت التي تدعيه هو القاعدة التي لا يقوم شيء صالح بدونها في حياة البشر»[٦].

فحري بالمجتمع المسلم أن يدرك هذه الحقيقة وأن يعي هذه الغاية وأن يعمل لها حتى يصل إلى الكمال الإنساني في هذه الحياة.

١- طريق الدعوة في ظلال القرآن، أحمد فائز، ص٣٨١.

٢- سورة البقرة: الآية ٢٩.

٣- سورة الجاثية الآية:١٣.

٤- سورة النساء الآية:١٦٥.

٥- سورة هود الآية: ٥٠.

٦- في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ٣ ص١٣٠٦.

المطلب الثاني: أهمية العبادة في بناء المجتمع

إن العبادات الإسلامية تمثل ركناً ركيناً وأساساً متيناً من أسس النظام الاجتماعي، فهي من حيث الأهمية للمجتمع تأتي بعد العقيدة الإسلامية، وهذا ما أكده رسول الله ﷺ في حديثه المشهور الذي بين فيه أن الشعائر الإسلامية -الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج- هي أساس البناء الإسلامي كله بعد الشهادتين قال ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»[1].

ومن هنا فإن المجتمع الذي يريد أن يبني مستقبلاً لأفراده، ويصعد بهم إلى مراتب التقدم والرقي، هو ذلك المجتمع الموصول بالله تعالى، هو ذلك المجتمع الذي يقيم بناءه على عبادة الله، ويستشعر أفراده بهيمنة المعبود، ذلك لأن حرارة العبادة ونورها لا بد أن تدفع أصحابها إلى سلم المجد الذي يوصل إلى المعبود سبحانه وتعالى.

ولأهمية هذا الدور الخطير للعبادة في بناء المجتمع، «فقد بدأت حياة النبي ﷺ قبل البعثة ونزول الوحي بالخلوة والتعبد في غار حراء، فكانت العبادة تشغل جزءاً كبيراً من حياته،، وحياة المسلمين الأولين في بدء الدعوة، وكان من أوائل ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2].

وكان المسلمون الأول يجتمعون ويعبدون الله في دار الأرقم بن أبي الأرقم، واستمر النبي ﷺ في أخذ نفسه بالعبادة وكذلك كان الدعاة الأولون من كبار الصحابة يأخذون أنفسهم بالعبادة من قراءة القرآن،

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم، ج ١ ص٦٣، حديث رقم: (٨) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٢- سورة المزمل الآية: ١، ٢.

وذكر الله والصلاة، حتى كأن كثرة العبادة كانت متناسبة مع منزلة الإنسان في الدعوة وقوة أثره، وبلائه فيها»[1].

وقد أشار الشيخ محمد أبو زهرة– رحمه الله – إلى أهمية العبادات الإسلامية وأنها تصل بالمجتمع إلى نتيجتين محققتين عنهما ينبثق المجتمع المتآلف المتحاب..

«أولهما: الاتجاه إلى تربية الوجدان الديني الذي يجعل المؤمن بالإسلام مؤتلفاً مع غيره ليتكون من هذا الائتلاف مجتمع إنساني متواد متحاب.

والثانية: أن غاية العبادات في الإسلام ليست مجرد التقوى السلبية، لأنها تتجه إلى النفع الإنساني في العالم، وإلى إيجاد مجتمع متحاب غير متباغض ولا متنازع، فعلامة الإخلاص لله فيها أن تكون مطهرة للقلب، قاضية على الشر فيه، مؤلفة بينه وبين الناس من غير مراعاة، ولا مغالاة»[2].

ولعل ما يزيد إدراك أهمية العبادة وخطورتها للمجتمع، هو أن العبادة هي التي «تجعل العقيدة الإسلامية حية في النفس وتنقلها من حيز الفكر المجرد إلى حيز القلب الذي يحس ويشعر، فتجعلها بذلك قوة دافعة لها حرارتها ولها نورها، وشتان بين مجتمع يعلم أفراده عقلياً ويقتنع فكرياً بوجود الله ومجتمع يحس أفراده ويشعرون بإشراق ويتصورون قلبياً حتمية لقائه وحسابه، فالعبادة في الإسلام هي الوسيلة التي تنقل أفراد المجتمع من الحال الأولى إلى الحال الثانية»[3].

١– نظام العقيدة والعبادة د. محمد المبارك: ص١٦٣.

٢– انظر: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام: الشيخ محمد أبو زهرة ص٩٦، ٩٧، ط الدار السعودية، الثانية ١٤٠١هـ–١٩٨١.

٣– نظام الإسلام العقيدة والعبادة د. محمد المبارك: ص١٦٤.

المطلب الثالث- أثر العبادة[1] الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع.

للعبادات الإسلامية آثار طيبة، ومنافع جمة في حياة الفرد والمجتمع، تظهر من خلال القيام بأداء بعض هذه العبادات، والنظر في بعض أسرارها.

أ- الصلاة وأثرها في بناء الفرد والمجتمع:

الصلاة: هي ألف باء الإسلام وأولى فرائضه، وهي مفرق الطريق بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، وهي عماد هذا الدين لا يقوم بغيرها، وهي أول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة، ولعظمتها فرضت في السماء ليلة الإسراء والمعراج مباشرة من الله لرسوله محمد ﷺ.

وللصلاة بناء على هذا، آثار عظيمة تعود على الفرد والمجتمع المسلم، ومن هذه الآثار:

١-الصلاة زاد روحي للمسلم: إن المسلم حين يقف بين يدي ربه خاشعاً ضارعاً فإنه يشعر بطاقة إيمانية تسري في أوصاله، فتعطيه دفعة هائلة تعينه على مجابهة أحداث الحياة.. وهذا ما أشار إليه الحق سبحانه في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].. فهذه الآية الكريمة توضح قيمة الصلاة «إنها الصلة المباشرة بين الإنسان الفاني والقوة الباقية، إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع الذي لا يغيض، إنها الكنز الذي يغني ويقني ويفيض.. إنها الانطلاق من حدود الواقع الأرضي الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير.. إنها الروح والندى والظلال في الهاجرة،

١- لا تقتصر العبادة – كما بينا سابقاً – على الشعائر الدينية الأساسية (الصلاة، الزكاة، والحج، والصيام) وإن كانت أساسية كبرى، فالعبادة تستوعب كافة الأعمال الصالحة التي يقدمها الإنسان في حياته، والتي يراد بها وجه الله، ولكن سيقتصر الحديث هنا على أثر العبادات الأربع المعروفة (الصلاة – الزكاة – الصوم – الحج) نظراً لمكانتها وخطورتها في واقع الحياة الاجتماعية.

٢- سورة البقرة الآية: ١٥٣.

إنها اللمسة الحانية للقلب المتعب المكدود، ومن هنا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»[1].. فالصلاة إذا هي الزاد الذي يتزود به المسلم في مجابهة مشقات الحياة.

٢- الصلاة دعوة للأخلاق ووقاية من الرذائل: إن الصلاة دعوة للأخلاق الكريمة والسلوك الحسن مع الناس، فهي إن أُديت بخشوع نهت عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[2].

وهذا المعنى الذي تشير إليه هذه الآية هو ما وضحه رسول الله ﷺ حين شبه الصلاة بنهر جار في تنقية الإنسان وتطهيره من الأدران، فكما أن الإنسان لو اغتسل في النهر الجاري خمس مرات كل يوم لا يبقى من درنه شيء، فكذلك الصلاة لو أداها المسلم في خشوع وخضوع، فإنها تطهره من الذنوب؛ يقول عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا»[3].

وبالإضافة إلى هذه الطهارة الروحية، فإن الصلاة يصاحبها طهارة حسية؛ ذلك «لأن التهيؤ للصلاة بطهارة البدن والثوب والمكان، والوضوء، يربي أفراد المجتمع على النظافة والذوق السليم الذي ينفر من القذارات والنجاسات الحسية والمعنوية، وحينما تصاحب الطهارة

١- في ظلال القرآن، ج ١ ص١٤٢، والحديث أخرجه أبو داود، ج ٢ ص٧٨، حديث رقم: (١٣١٩).

٢- سورة العنكبوت الآية: ٤٥.

٣- أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ج ٢ ص١٥، حديث رقم: (٥٢٨).

الحسية طهارة القلب من كل ما يغضب الله...فلا حقد ولا حسد ولا بغضاء ولا شحناء»[1].

٣-الصلاة توثيق للروابط الاجتماعية: إن الصلاة لها أثر كبير في توثيق الروابط الاجتماعية، فهي باشتراط صلاة الجماعة تؤدي إلى: «تقوية أواصر المجتمع، إذ يلتقي فيها الناس على اختلاف ألوانهم وأخبارهم وأحوالهم المالية والاجتماعية على صعيد العبودية لله، والمساواة بين الجميع، ويتم التعارف والتعاون على الأمور التي يحتاجون إليها في سبيل صلاح دينهم ودنياهم، كما أن هناك اجتماعاً أوسع وأكبر من صلاة الجماعة وهي صلاة الجمعة التي يتم فيها الاجتماع الأسبوعي ويتلقى فيها المسلمون التوجيهات القيمة والموعظة البليغة التي تعالج المشاكل - إن وجدت - وتقوى فيها روابط المحبة والأخوة والقيم السامية. وهناك اجتماع أوسع ممثل في صلاة العيدين يجمع أهل البلد قاطبة، الرجال والنساء والصبيان في صعيد واحد يشعر فيه المسلم برابطة الأخوة، وأن أبناء المجتمع جميعاً كالجسد الواحد، لا فرق بين فرد وآخر إلا بالتقوى»[2].

٤- والصلاة في المسجد وسيلة من وسائل «وحدة الفكر والعقل والثقافة، لأن مصدر التوجيه واحد، مما يؤدي إلى تآلف الأرواح والنفوس»[3].

٥- وفي الصلاة ترسيخ لمبدأ الحرية والمساواة في المجتمع: «فالإنسان إذا اعتاد الوقوف في صف يكون فيه السيد بجانب المسود، والمخدوم قريباً من الخادم - والكل ذليل بين يدى الله - لم يجد له في هذا

١- زاد على الطريق، مصطفى مشهور، ص٧٥، ط دار التوزيع والنشر، د.ت.

٢- مجتمعنا المعاصر د. عبد الله المشوخى ص٣٤٣ - ٣٤٤. وانظر: الإسلام د. أحمد شلبي ص١٤٦، ط مكتبة النهضة المصرية السابعة ١٩٨٣م.

٣- المجتمع الإسلامي د. أحمد شلبي: ص٥٦.

الموقف فضلاً على غيره، بل ربما رأى غيره ممن هو أقل منه درجة في الدنيا أفضل عبادة منه، فإذا انصرف من مكان الصلاة استحيى أن يرى لنفسه حقاً في ادعاء السيادة أو التفرد بالحرية»[1].

والحق أن الآثار التي تعود على الفرد والمجتمع من إقامة شعيرة الصلاة لا حصر لها، كيف لا؟ وهي التي حولت مجتمع الجاهلية من العرب من معاقرين للخمر في أشد درجات الغلظة، ومن وأد للبنات وجور وثأر وعدوان وظلم وسفك للدماء إلى رجال يقفون خاشعين في المحراب، حتى تتورم منهم الأقدام والقرآن ينطلق من ألسنتهم وقلوبهم ولهم دويّ كدويّ النحل.

ب- الزكاة وأثرها في بناء الفرد والمجتمع.

الزكاة هي الفريضة الثانية في الإسلام، وأحدى الدعائم التي قام عليها بنيان هذا الدين، وهي العبادة المالية الاجتماعية، جعل الإسلام «إيتاءها مع إقامة الصلاة، والشهادة لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة عنوان الدخول في الإسلام، واستحقاق أخوة المسلمين ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾[2]، ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[3].

فالزكاة، بناء على هذا، لها آثار عظيمة تعود على الفرد والمجتمع، نذكر منها ما يلي:

١- الزكاة علاج عملي لضعف النفس وتحصينها من أدواء الشح والأثرة: كان للزكاة -ولا يزال- الأثر الطيب في تطهير المجتمع من آفة

١- محمد صلى الله عليه المثل الكامل – أحمد جاد المولى ص٢٣٦ تحقيق عبد الرحيم مارديني ط دار المحبة – الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

٢- سورة التوبة الآية: ٥.

٣- سورة التوبة الآية: ١١.

الشح البغيض «تلك الآفة الخطيرة التي تدفع من اتصف بها إلى الدم فيسفكه، أو العرض فيبذله، أو الوطن فيبيعه، ولن يفلح فرد أو مجتمع سيطر الشح عليه، وملك ناصيته، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] [2].

٢-الزكاة علاج وقائي من الآفات الاجتماعية: كان للزكاة – ولا يزال – أعظم الأثر في تنقية وترقية السلوك الإنساني في المجتمع المسلم، وهذا ما نلحظه من خلال النظرة الثاقبة للفظة التي اختارها القرآن الكريم في تسمية هذه الفريضة «الزكاة».. قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾[3].

يقول صاحب تفسير المنار في تفسير هذه الآية:«إن الزكاة تطهر أنفس الأفراد من أرجاس البخل والدناءة والأثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وربا وغير ذلك، فإن الذي يتربى على بذل بعض ما في يده في سبيل الله جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق، وهذا التطهير لأنفس الأفراد وتزكيتها يستلزم تطهير المجتمع من الرذائل الاجتماعية التي هي مسار التحاسد والتعادي والبغي والعدوان والفتن والحروب»[4].

ولا شك أن التزكية والتطهير من هذه الآفات الاجتماعية والتي هي من آثار الزكاة من أعظم المهام التي بعث لأجلها النبي ﷺ، بل هي مهمة الأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

١- سورة الحشر الآية: ٩.

٢- العبادة في الإسلام د. القرضاوي ص٢٧٣.

٣- سورة التوبة الآية: ١٠٣.

٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ج ١ ص٢٢.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

٣- الزكاة من أعظم الوسائل لتوثيق الروابط الاجتماعية: الزكاة من أقوى عوامل تثبيت المودة والتراحم، وغرس مشاعر الحنان والرأفة، وتوطيد علاقات التعارف والألفة بين شتى الطبقات في المجتمع.

كما أنها تربط بين الغني والفقير برباط متين سداه المحبة ولحمته الإخاء والتعاون؛ لأن «الناس إذا علموا في الإنسان رغبته في نفعهم وسعيه في جلب الخير لهم ودفع الضير عنهم، أحبوه بالطبع ومالت نفوسهم إليه لا محالة، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2] [3].

وهكذا ينقل الإسلام بالزكاة الإنسان من الأنانية إلى الإيثار، ومن الفردية الى الجماعية فيحس أنه فرد في هذا المجموع ينتفع به وينفعه.

٤-الزكاة تطهر المجتمع من آفتي الحسد والبغضاء: فالإنسان إذا عضته أنياب الفقر، ودهته داهية الحاجة، ورأى من حوله ينعمون بالخير ويعيشون في الرغد ولا يمدون له يدًا بالعون، هذا الإنسان لا يسلم قلبه من البغضاء والضغينة على مجتمع يهمله، ولا شك أن الحسد والبغضاء داء فتاك وآفة قاتلة وخسارة مدمرة للفرد والمجتمع[4].

ج- الصيام وأثره في بناء الفرد والمجتمع.

الصيام هو رابع أركان الإسلام، وهو الضابط المتمم لضوابط الشهادتين والصلاة والزكاة، فهو من أجلّ دعائم الإيمان، وأفضل

١- سورة آل عمران الآية: ١٦٤.

٢- سورة الرعد الآية: ١٧

٣- فقه الزكاة د. يوسف القرضاوي، ج ٢ ص٨٦٧، ط مؤسسة الرسالة، الرابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م.

٤- فقه الزكاة، د. يوسف القرضاوي، ج ٢ ص ٨٧٧.

القرب التى تقرب العبد من ربه.. وللصوم دوره العظيم وآثاره البالغة على الفرد والمجتمع، ومن هذه الآثار:

١-الصوم تربية للإرادة: «فالصائم يجوع وأمامه شهي الغذاء، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وبجانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه ولا سلطان إلا ضميره ولا يسنده إلا إرادته القوية الواعية، يتكرر ذلك نحو خمس عشرة ساعة أو أكثر في كل يوم، وتسعة وعشرين يوما أو ثلاثين في كل عام. فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية وتعليم الصبر الجميل والمراقبة الكاملة كمدرسة الصيام التي يفرضها الإسلام إجبارياً على المسلمين في رمضان، وتطوعاً في غير رمضان»[١].

٢- الصوم وسيلة فعَّالة لغرس خلق المراقبة الذاتية في النفس: فالصوم «واجب في رمضان، والاستحمام جائز أو واجب أحياناً، وفي حالات كثيرة يشتد العطش بالمسلم في نهار رمضان ثم يلقي بنفسه بين الماء ليستحم وينعم من كل جهة وهو شديد الحاجة إلى كوب منه ليطفيء ظمأه ويردّ عطشه، ولكنه لا يفعل؛ لا خوفاً من القانون فطالما استطاع كثير من الناس أن يخدعوا القانون، ولا خوفاً من الناس فطالما أفلت المجرم من عيون الناس، ولكن خوفاً من الله الذي ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[٢] [٣].

٣-الصوم عامل قوي على نشر الفضائل ومحق الرذائل: فهو بمثابة صمام أمان للفرد والمجتمع لما فيه من «انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فهو يردع عن الأشر والبطر والفواحش، ويهون لذَّات شهوات الدنيا ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين كما قيل في المثل السائر: المرء يسعى لغاية بطنه وفرجه،

١- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي: ص٢٩١.

٢- سورة آل عمران الآية: ٥.

٣- الإسلام، د. أحمد شلبي: ص١٥٦.

فمن أكثر من الصوم هان عليه أمر هذين وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش ومهوناً عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى»[1].

ولعل هذا بعض ما أشار إليه لفظ «التقوى» في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2].

٤-الصوم تذكير بحرمان المحرومين: ومن أعظم آثار الصوم أنه «تذكير عملي بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، تذكير بغير خطبة بليغة ولا لسان فصيح، تذكير يسمعه الصائم من صوت المعدة، ونداء الأمعاء، فإن الذي نبت في أحضان النعمة ولم يعرف طعم الجوع، ولم يذق مرارة العطش، لعله يظن أن الناس كلهم مثله، وما دام يجد فالناس يجدون، وما دام يُطْعَم لحم طير مما يشتهي وفاكهة مما يتخيرون، فلن يحرم الناس الخبز والبقول، فلا غرو أن جعل الله من الصوم مظهرًا للاشتراكية الصحيحة، وجعل الجوع ضريبة إجبارية يدفعها الموسر والمعسر، ويؤديها من يملك القناطير المقنطرة ومن لا يملك قوت يومه، حتى يشعر الغني أن هناك مَعِدَات خاوية، وبطوناً خالية، وأحشاء لا تجد ما يسد الرمق ويطفىء الحرق، فحري بإنسانية الإنسان، وإسلام المسلم، وإيمان المؤمن أن يرق قلبه وأن يعطي المحتاجين، وأن يمد يده إلى المساكين فإن الله رحيم، وإنما يرحم من عباده الرحماء»[3].

٥- الصوم يعلم المجتمع حاسة النظام: فجميع المسلمين يصومون

١- التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي: ٧٠/٥، ط دار الكتب، طهران، الثانية، د.ت. وانظر: الصيام في الإسلام، د. أحمد عمر هاشم: ص١٤، ط الهيئة العامة المصرية للكتاب، د.ت.

٢- سورة البقرة الآية: ١٨٣.

٣- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي: ص٢٩٣.

في وقت واحد ويفطرون في وقت واحد، لا يتقدم أحد على الآخر دقيقة واحدة.

د- الحج وأثره في بناء الفرد والمجتمع:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو آخر ما فرضه الله تعالى من الشعائر والعبادات، وهو تلك الرحلة الفريدة في عالم الأسفار والرحلات، ينتقل المسلم فيها ببدنه وقلبه إلى البلد الأمين الذي أقسم الله به في القرآن للوقوف بعرفات الله، والطواف ببيت الله الحرام، الذي جعله الإسلام رمزاً لتوحيد الله، ووحدة المؤمنين..

ولأعمال المناسك في الحج أسرار وآثار تنعكس على الفرد والمجتمع.. «فما الإحرام في حقيقته -وهو أول المناسك- إلا التجرد من شهوات النفس والهوى، وحبسها عن كل ما سوى الله وعلى التفكير في جلاله.. وما التلبية إلا شهادة على النفس بهذا التجرد، وبالتزام الطاعة والامتثال.. وما الطواف بعد التجرد إلا دوران القلب حول قدسية الله، وما السعي بعد هذا الطواف إلا التردد بين علمي الرحمة التماساً للمغفرة والرضوان، وما الوقوف بعد السعي إلا بذل المهج[1] في الضراعة بقلوب مملوءة بالخشية، وأيد مرفوعة بالرجاء، وألسنة مشغولة بالدعاء، وآمال صادقة في أرحم الراحمين.. وما الرمي بعد هذه الخطوات التي تشرق بها على القلوب أنوار ربها إلا رمز مقت واحتقار لعوامل الشر ونزعات النفس، وإلا رمز مادي لصدق العزيمة في طرد الهوى المفسد للأفراد والجماعات. وما الذبح، وهو الخاتمة في درج الرقي إلى مكانة الطهر والصفاء، إلا إراقة دم الرذيلة بيد اشتد ساعدها في بناء الفضيلة، ورمز للتضحية والفداء على مشهد من جند الله الأطهار الأبرار»[2].

١- المهج: الدم، وقيل دم القلب خاصة (المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص٥٩٣).

٢- الإسلام عقيدة وشريعة، الإمام الشيخ محمود شلتوت، ص١٢٨، ١٢٩.

أما عن آثار الحج في المجتمع فكثيرة، منها:

١- إن الحج له أثر كبير في إحياء معاني التضحية والبذل والعطاء في المجتمع المسلم: حيث يخرج الحجاج تاركين الديار والأوطان، والأهل والمال، رجاءً وأملاً في رحمة الله، ومن المعلوم أن كل مجتمع «يبخل أفراده عن البذل والعطاء، ويحجمون عن التضحية بالمال والنفس، لا يمكن أن ينتصر في معارك الجهاد، ولا يكون له مستقبل زاهر، أو حاضر رغيد، بل يصبح عرضة لنزول سخط الله وعذابه عليه وابتلائه بالخضوع والذل لأعدائه»[1].

٢- كما أن الحج وما يحظى به من شعائر وأركان يُعد دعامة أساسية في بناء الفرد المسلم والأسرة المسلمة وكذلك المجتمع المسلم على الأخلاق، ويبرز هذا الأثر العظيم في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[2]..

يقول صاحب تفسير الكشاف في هذه الآية: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي: فمن ألزمته نفسه بالتلبية أو تقليد الهدي وسوقه ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ أي فلا جماع لأنه يفسده أو فلا فحش من الكلام. وقوله: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ يقصد به: لا خروج عن حدود الشريعة، وقيل: هو السباب والتنابز بالألقاب. وقوله: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ولا مراء مع الرفقاء والخدم والمكارين، وإنما أمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه مع الحج أسمج كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن. أما قوله

١- أعياد الأمة في علو الهمة: ص١٨.

٢- سورة البقرة الآية: ١٩٧.

تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ ﴾ حث على الخير عقب النهي عن الشر، وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة. وأما قوله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ أي اجعلوا زادكم إلى الآخرة اتقاء القبائح فإن خير الزاد اتقائها[1].

وهكذا حظيت هذه الآية بجملة من الآداب الأخلاقية التي تنهى الحاج عن الرفث، كما تنهاه عن الجدال أو المراء الذي قد يحدث منه أثناء أداء شعائر الحج، وتنهاه عن فعل الذنوب وارتكاب المعاصي.

٤- الحج وسيلة فعالة لتوحيد المجتمعات الإسلامية: ففي الحج «نرى معنى الوحدة جلياً كالشمس، وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر، ووحدة في الهدف، ووحدة في العمل، ووحدة في القول، لا إقليمية ولا عنصرية ولا عصبية، إنما هم جميعاً مسلمون برب واحد، وببيت واحد يطوفون، ولكتاب واحد يقرؤون، ولرسول واحد يتبعون، ولأعمال واحدة يؤدون، فأي وحدة أعمق من هذه وأبعد غوراً؟!»[2]. فإذا كانت المجتمعات الإسلامية تعيش اليوم في فرقة وتشرد، فإن مؤتمر الحج جدير بتجميع شمل الأمة وتوحيد صفوفها.

٥- وفي الحج ترسيخ لمبدأ المساواة في المجتمع: ففي الحج يظهر معنى المساواة في أجل صورة وأكملها «فالجميع طرحوا الملابس والأزياء المزخرفة، ولبسوا جميعاً ذلك اللباس البسيط الذي هو أشبه ما يكون بأكفان الموتى، يلبسه الملك والأمير، كما يلبسه المسكين والفقير، وإنهم ليطوفون بالبيت جميعاً، فلا فرق بين من يملك القناطير المقنطرة،

١- تفسير الكشاف للزمخشري، ج ١ ص٣٤٦، ٣٤٧، ط دار المعرفة – بيروت – لبنان د.ت. وانظر: مع الحجيج في رحلة الشوق والحنين: الشيخ عبد المعز عبد الحميد الجزار: هدية مجلة الأزهر، ذي القعدة ١٤٢٠هـ.

٢- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي: ص٣٠٦.

ومن لا يملك قوت يومه، ويقفون في عرفات ألوفاً ألوفاً، فلا تحس بفقر فقير، ولا غنى غني، ولا تحس حين تراهم في ثيابهم البيض، وفي موقفهم المزدحم العظيم إلا أنهم أشبه بالناس في ساحة العرض الأكبر يوم يخرجون من الأجداث إلى ربهم ينسلون»[١].

فمن هذه الآثار -وغيرها كثير- يتبين أن مؤتمر الحج هو مؤتمر المسلمين العالمي، وهو سر خلودهم في هذه الأرض يفاخرون به أهل الدنيا جميعاً.

١- المرجع السابق: ص٣٠٥.

المبحث الثاني

العدالة الاجتماعية

إن العدالة الاجتماعية هي سمة الإسلام وهي ميزان الاجتماع فيه، لا يتصور صلاح مجتمع، ولا انتظام أمره إلا على أساس من هذه العدالة، وكل نظام اجتماعي لا يقوم على العدالة منهار، لأن العدالة هي الدعامة الحقيقية لكل بناء سليم، ولذلك كانت أجمع الآية في كتاب الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1]، فلا نحسب أن نظاماً من الأنظمة الحديثة بل والقديمة، مهما بلغ من الحرص على تأمين العدالة، يستطيع أن يؤمن هذه العدالة ويوفرها للمجتمع كما أمنها الإسلام ووفرها؛ ذلك لأن الإسلام قد وضع العدالة في موضع الأساس لنظامه الشامل.

المطلب الأول: مكانة العدالة في الإسلام.

لقد جاءت النصوص الكثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة تبين مكانة العدالة، أما القرآن فقد عُنِي بالعدالة عناية بالغة، حيث جعل إقامتها بين الناس هدف الرسالات السماوية، والغاية من إنزال الكتب المقدسة.. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

وليس هناك ثمة مكانة أعظم من أن يكون المقصود الأعظم، والهدف الأسمى من إرسال الله تعالى رسله، وإنزال كتبه هو إقامة العدالة وتحقيقها بين الناس..

١- سورة النحل الآية: ٩٠.

٢- سورة الحديد الآية: ٢٥.

وبالعدل قامت السماوات والأرض ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1]..

والعدل هو صفة الله عز وجل ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2]، وهو كلماته سبحانه التي أنزل بها كتبه، وشرع بها شرائعه.. قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴾[3]..

والعدل أحدي وظائف النبي ﷺ التي كُلِّف بها.. قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يعدل بين الناس ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[5].

وهكذا أبرز القرآن الكريم مكانة العدالة ورفع شأنها حيث جعلها ميزاناً يحكم به بين الناس.

وأما السنة النبوية فقد اهتمت هي الأخرى بالحديث عن العدالة اهتماماً بالغاً وأولتها عناية فائقة، يتبين ذلك من خلال التأمل في الأحاديث التالية:

١- عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل

١- سورة الأحقاف الآية: ٢.

٢- سورة آل عمران الآية: ١٨.

٣- سورة الأنعام الآية: ١١٥.

٤- سورة الشورى الآية: ١٥.

٥- سورة المائدة الآية: ٤٢.

تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1]. ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ الإمام العادل أول صنف من الأصناف السبعة الذين يظلهم الله تعالى بظله يوم القيامة، وفي هذا رفع لمكانة العدل، وعظم شأن من اتصف به.

وأحسن ما فسر به الإمام العادل: أنه «الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط»[2].

٢- عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر»[3].

ففي هذا الحديث دلالة على أن الحاكم العادل الذي يعدل في حكمه هو من أحب الناس إلى الله وأرفعهم منزلة يوم القيامة، أما الحاكم الظالم الذي يجور في حكمه فذلك ممقوت ببغض الله تعالى له.

فهذه الأحاديث النبوية، وإن خصت الإمام العادل بالفضل، فإن النبي ﷺ قد بشر جميع المقسطين بالجزاء العظيم من الله تعالى يوم القيامة، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[4].

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ج ٢ ص٥١٥، حديث رقم: (١٠٣١).

٢- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر، ج ٢ص١٧٩، ط دار الحديث، الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٣- أخرجه الإمام الترمذي في سننه، كتاب الأحكام، باب ما جاء في الإمام العادل، ج ٢ ص٣٩٤، حديث رقم: (١٣٤٤) وقال: حديث حسن غريب.

٤- رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ج ٣ ص١٤٥٨، حديث رقم: (١٨).

المطلب الثاني: أهمية العدالة في بناء المجتمع.

لقد جاء الإسلام بعقيدته الوارفة لينشئ أمة، وينظم مجتمعاً، ويقيم نظاماً، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، جاء «بالعدل» الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، والغنى والفقر، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع وتزن بميزان واحد للجميع[1].

وإنما كان تأكيد الإسلام على معاني العدالة وضرورة الالتزام بها، والنهي عن الظلم واجتناب الظالمين، لأن «المجتمع الذي يشيع فيه العدل يحس أفراده بالاطمئنان على حقوقهم، فالقانون يكون مع المحقّ وإن كان ضعيفاً، لا مع المبطل وإن كان قوياً، وبعكس ذلك إذا شاع الظلم، وندر العدل، أحس الأفراد بالقلق الدائم على حقوقهم وزال عنهم الاطمئنان والاستقرار، وكان ذلك إيذاناً بدمار هذا المجتمع»[2].

وقد أشار الرسول ﷺ إلى أثر التفريط في العدل، وكيف يؤدي بالمجتمع إلى الدمار والهلاك، فعن عائشة - رضى الله عنها - أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ إلا أسامة حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: «أتشفع في حد من حدود الله؟!»، ثم قام فاختطب فقال: «أيها الناس، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا

١- أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان: ص١٠٣.

٢- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج ٤ ص٢١٩٠.

عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١].

فهذا الحديث يبين مدى حرص النبي ﷺ على تحقيق العدل حتى مع أقرب الناس إليه، لأنه يعلم أن «الظلم كالنار يحس بوطأتها المظلومون، فإذا شاع الظلم وغارت معاني العدالة كثر المظلومون الذين لا يرون في هذا المجتمع حماية لهم، ولا حفظاً لحقوقهم، وإنما يرون فيه هضم حقوقهم، وهذا يجرهم إلى عدم الاهتمام به وببقائه، وهذا قد يجرهم إلى المعاونة على هلاكه وإفنائه وهذا بخلاف المجتمع العادل، حيث يحرص الأفراد على بقائه، ورد الأعداء عنه، لأنهم يرونه كالبيت الذي يؤويهم فيكون هذا الحرص منهم عليه، وبذل الجهد لبقائه، ولهذا قيل: إن الدولة العادلة تبقى وإن كانت كافرة، وإن الدولة الظالمة تفنى وإن كانت مسلمة»[٢].

ومن أجل هذا كله قام المجتمع الإسلامي في المدينة على أساس من العدالة والالتزام بها، «فما كان هناك ظلم ولا محاباة ولا إجحاف، وإنما كان هناك العدل الصارم الذي يتساوى أمامه الشريف والوضيع، وقد ترتب على ذلك أن الضعيف كان معه المجتمع بكل قوته ما دام محقاً ولا يضيره ضعفه، لأن قوة المجتمع والقانون معه، وكان الغني لا تغنى عنه قوته ما دام مبطلاً، لأن قوة المجتمع والقانون ضده»[٣].

ولما كانت العدالة والالتزام بها من أهم أسس البناء للنظام الاجتماعي، فقد حرص الإسلام على إدانة الظلم والظالمين وسوى بين المظلومين الساكتين على الظلم وبين الظالمين الذين يمارسونه فقال

١- أخرجه الإمام البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٢، ج ٦ ص٦٢٩، ٦٣٠، حديث رقم: (٣٤٧٥)، (فتح الباري)، ورواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قطع يد السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، ج ٢ ص١٣١٥، ح (١٦٨٨).

٢- أصول الدعوة، د.عبد الكريم زيدان: ص١٠٣.

٣- السابق نفسه.

تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾[1].

وفي مقابل ذلك، يشيد القرآن بالذين لم يخنعوا للظلم، ولم يرضوا به بل يتناصرون لمقاومته، فيقول تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾، وقال سبحانه: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[2]..

وبعد هذا كله «أيصح في عقل العقلاء أن تترك هذه المجتمعات وتلك الأمم هذه الأصول العادلة، والمبادئ الصالحة، ثم يتماسك لها بنيان، أو يثبت لها صف في ميدان، أو يمكن أن تكون الأمة شيعاً وطبقات، وأن يملأ الظلم جنباتها ثم ترسخ لها في مراقي العز والفلاح قدم أو تعلو لها راية. كلا والله، وإن الظلم ظلمات بعضها فوق بعض إذا فشا في أمة لم تكد تراها إلا صريعة ضائعة تتقلع جذورها من تحتها مثلما يخر عليها السقف من فوقها»[3].

المطلب الثالث: مجالات العدالة الاجتماعية في الإسلام.

أولاً: العدل في نظام الأسرة:

يحرص الإسـلام دائـمـاً في كل مجـال وفي كل مـيـدان على تحقيق العدالة، وفي الميدان الاجتماعي في كل ما يخص الأسرة، وضع الإسلام أسساً ووسائل من شأنها أن تحقق العدل داخل هذا البنيان الناشئ. ومن أهم هذه الأسس:

١- الترغيب في كل ما يؤدي إلى صور ووسائل العدل حتى تقوم الأسرة على أساس من العدل الذي جاء به الإسلام وجعله من أخص صفاته.

١- سورة النساء الآية: ٩٧.

٢- سورة الشورى الآيتان: ٣٩، ٤١.

٣- عوامل الهدم والبناء في المجتمع الإسلامي د. عبد الرحمن البر ص٢٢.

ومن هذه الوسائل:

أ- وجود شاهدي عدل في عقد الزواج: فقد اشترط الإسلام في صحة عقد الزواج وإتمامه أن يكون هناك شاهدان وأن يتصف الشاهدان بالعدالة لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»[1][2].

ب- العدل بين الزوجات: العدالة حق أوجبه الشرع لكل من الزوجين على الآخر، ولكنه «حق للزوجة على زوجها بشكل خاص، حتى إنه قبل الزواج لا يجوز له أن يتزوج إن تأكد أنه لا يستطيع العدل مع زوجته، سواء كان ذلك الزواج هو الأول أم كان له زوجة وهذه هي الثانية أو الثالثة أو الرابعة. والمنع ديني يخضع لسلطان التدين، ولا يخضع لسلطان القضاء، لأن أساس المنع هو خشية الظلم، وخشية الظلم أمر نفسي لا تجري عليه أحكام القضاء، ولكن يجري عليه حكم الله الذي لا تخفى عليه خافية في السماء والأرض»[3].. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾[4]..

ولا تعارض بين ما أوجبه الله من العدل في هذه الآية، وبين ما نفاه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ

١- أورده الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب النكاح، باب ما جاء في الولي والشهود: ٢٨٦/٤، ٢٨٧، وقال: رواه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن عبد الملك عن أبى الزبير فإن كان هو الواسطي فهو ثقة وإلا فلم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

٢- «وقد ذهب الأحناف إلى أن العدالة لا تشترط، وأن الزواج ينعقد بشهادة الفاسقين، وكل من يصلح أن يكون ولياً في زواج يصلح أن يكون شاهداً فيه، وقال الشافعية لا بد أن يكون الشهود عدولاً للحديث المتقدم «لا نكاح إلا بولي وشاهدي عدل»، وعندهم أنه إذا عقد الزواج بشهادة مجهولي الحال ففيه وجهان. والمذهب أنه يصح، لأن الزواج يكون في القرى والبادية وبين عامة الناس، ممن لا يعرف حقيقة العدالة، فاعتبار ذلك يشق فاكتفى بظاهر الحال، وكون الشاهد مستوراً لم يظهر فسقه» (فقه السنة: السيد سابق، ج ٢ ص١٨٨).

٣- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الشيخ محمد أبو زهرة: ص٩٨.

٤- سورة النساء الآية: ٣.

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾[1]؛ لأن العدل المطلوب هو العدل الظاهر المقدور عليه مثل العدل بينهن في الطعام والسكن والكسوة والمبيت وسائر ما هو مادي، أما العدل المنفي فهو في المحبة والمودة القلبية، وهذا ما لا يستطيع أحد أن يملكه.

ج- وجوب العدل بين الأبناء: لقد حرص الإسلام على تحقيق العدل الشامل بين الأبناء حتى منذ لحظات ولادتهم، فلم يفرق في المعاملة الطيبة بين ذكر أو أنثى، بل اعتبر الجميع ذكوراً وإناثاً هبة من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًاۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2].

وقال تعالى منكراً على أهل الجاهلية ما كانوا عليه قبل الإسلام من تفضيل الذكر على الأنثى وإفراطهم في ظلم الأنثى إلى حد بلغ قتلها ووأدها حية لا ذنب لها سوى أن الله اختارها أن تكون أنثى لحكمة لا يعلمها إلا هو ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[4].

كما حرص الإسلام على تحقيق العدالة بين الأبناء في الملك والهبة؛ لأن العدل بينهم «يقيهم من أن تصطبغ مشاعرهم بالحقد وتتحول عاطفة الأخوة إلى ميول عدوانية تهتك علائق القرابة القريبة،

١- سورة النساء الآية: ١٢٩.

٢- سورة الشورى الآية: ٤٩، ٥٠.

٣- سورة النحل الآية: ٥٨ – ٥٩.

٤- سورة التكوير الآية: ٨، ٩.

وتقضي على وشائج الرحم الرحيمة، فإن الصفاء هو طابع العلاقات بين الأخوة – وهذا هو السلوك الطبيعي والفطري بينهم – لكن إذا ما شعروا أن تصرفات الآباء تميز هذا أو ذاك وتفضل أحداً منهم على الآخر فستجد أن رواسب الشر بدأت تثور، ونوازع السوء تحركت لتكون إعصاراً مدمراً لا يبقي ولا يذر»، وقد أعطتنا قصة يوسف – عليه السلام– صورة عملية مما يمكن أن يحدث بين الإخوة إذا ما شعروا –ولو خطأ– أن أباهم قد فضل أحدهم على سائرهم، أو بعضهم على بعض: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾[١] [٢].

د- العدل في الميراث: إن نظام الإرث في الإسلام هو مظهر من مظاهر العدالة الاجتماعية داخل الأسرة المسلمة، فكلٌّ «من الرجل والمرأة له الحق في الإرث والتوارث على النحو الذي وضعته الشريعة مراعية فيه أسمى قواعد العدل»[٣]. ولذلك فقد أجمع علماء القانون المنصفون الذين درسوا الشريعة الإسلامية على أن «نظام الإرث في الإسلام أعدل نظام للتوريث، ولا يوجد في قوانين البشر ما يماثله في العدالة أو يقاربه»[٤].

ومن خلال ما سبق يتضح مدى تحقيق العدالة في نظام الأسرة المسلمة تلك التي عجزت عن تحقيقها المذاهب الوضعية الفاسدة.

١- سورة يوسف الآية: ٩.

٢- الأسرة.. التكوين – الحقوق – الواجبات، د. أحمد حمد: ص٢٩٢.

٣- الأسرة المثلى في ضوء القرآن والسنة، د. عمارة نجيب: ص١٦٨، ط مكتبة المعارف – الرياض – الثالثة ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

٤- المجتمع الإنساني في ظل الإسلام: الإمام محمد أبو زهرة، ص١١٣.

٢- تحريم كل صور ووسائل الظلم في الأسرة، فقد حرص الإسلام على تطهير الأسرة من كل ما من شأنه أن يوقع الظلم بين أفرادها. وفي ذلك منع الإسلام وحرم كل صور الظلم، ومن أهمها:

أ- تحريم الخطبة على الخطبة: يحرم على المسلم أن يخطب على خطبة أخيه إذا كان قد وصل إلى اتفاق مع الطرف الآخر لما في ذلك «من اعتداء على حق الخاطب الأول وظلمه، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر، والاعتداء الذي يروع الآمنين»[١].. وفي ذلك يقول النبي ﷺ:«لا يبع بعضكم على بيع بعض ولا يخطب على خطبة بعض»[٢].

يقول الإمام النووي -رحمه الله- في تعليقه على هذا الحديث: قوله ﷺ «لا يخطب على خطبة أخيه ظاهره اختصاص التحريم بما إذا كان الخاطب مسلماً، فإن كان كافراً فلا تحريم، وبه قال الخطابي والأوزاعي، وقال جمهور العلماء: تحريم الخطبة على خطبة الكافر أيضاً، واعلم أن الصحيح الذي تقتضيه الأحاديث وعمومها أنه لا فرق بين الخاطب الفاسق وغيره»[٣].

ب-تحريم عادة التبني: لقد أبطل الإسلام نظام التبني وحرمه تحريماً مؤبداً لما فيه من الظلم الذي يقع عل كاهل كل من الوالد والولد على السواء.. فقال تعالى: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡ ﴾[٤].. يقول صاحب الظلال -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: وأما مسألة التبني فكانت تحدث التخلخل في بناء الأسرة، وفي بناء المجتمع كله، ومع ما هو مشهور من

١- فقه السنة: السيد سابق، ج ٢ ص١٥٣.

٢- أخرجه الإمام البخاري في كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، ج ٩ ص٢٤٢، حديث رقم: (٥١٤٣)، (فتح الباري)، وأخرجه مسلم في صحيحه: كتاب النكاح، باب تحريم نكاح المحرم وكراهية خطبته، ج ٢ص١٠٣٢، حديث رقم: (٥٠).

٣- صحيح مسلم على شرح النووي، ج ٩ ص٥٢٠، ٥٢٢.

٤- سورة الأحزاب الآية: ٥.

الاعتزاز بالنسب في المجتمع، فإنه كانت توجد إلى جانب هذا الاعتزاز ظواهر أخرى متناقضة في المجتمع...كان الرجل يعجبه أحد هؤلاء فيتبناه يدعوه ابنه ويلحقه بنسبه فيتوارث وإياه توارث النسب.

فلما شرع الإسلام ينظم علاقات الأسرة على الأساس الطبيعي لها أبطل عادة التبني، ورد علاقة النسب إلى أسبابها الحقيقية علاقات الدم والأبوة والبنوة والواقعية، فقال: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ﴾ وإنه لقسط وعدل أن يُدعى الولد لأبيه؛ عدل للوالد الذي نشأ هذا الولد من بضعة منه حية وعدل للولد الذي يحمل اسم أبيه ويرثه ويورثه، وعدل للحق في ذاته الذي يضع كل شيء في مكانه ويقيم كل علاقة على أصلها الفطري[1]. هكذا يقيم الإسلام نظام الأسرة على أساس عادل دقيق مطابق للواقع الفطري الذي فطره الله تعالى عليه.

ثانياً: العدل في العلاقات العامة بين أفراد المجتمع.

العدالة في الإسلام – كما ذكرنا – عدالة شاملة، تشمل كل مجالات الحياة، وفي الميدان الاجتماعي فإن العدالة تشمل العلاقات العامة داخل المجتمع.. ومن صور العدالة في العلاقات العامة داخل المجتمع ما يلي:

١-العدل في القول والشهادة:

أ-العدل في القول:

إن الإسلام يأمر بالعدل في كل قول يؤدي إلى تحقيق العدالة ونشرها في المجتمع، ورفع الظلم منه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ ﴾[2].. ففي هذه الآية «يرتفع الإسلام بالضمير البشري إلى مستوى سامق رفيع على هدى من العقيدة في الله ومراقبته بالقرابة هو شعور التناصر والتكامل والامتداد بما أنه ناقص محدود الأجل، وفي قوة

١- في ظلال القرآن، ج ٥ ص٢٨٢٥.

٢- سورة الأنعام الآية: ١٥٢.

القرابة سند لضعفه، وفي سعة رقعتها كمال لوجوده، وفي امتدادها جيلا بعد جيل ضمان لامتداده، ومن ثم يجعله ضعيفاً تجاه قرابته حين يقف موقف الشهادة لهم أو عليهم، أو القضاء بينهم وبين الناس... وهنا في هذه المذلة يأخذ الإسلام بيد الضمير البشري، ليقول كلمة الحق والعدل على هدى من الاعتصام بالله وحده»[1].

ومن هنا فقد حذر الإسلام من كل قول خبيث من شأنه أن يوقع الظلم بين أفراد المجتمع، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾[2].

والعدل في القول يشمل العدل في «الشهادة، والقضاء، والتعديل، والتجريح، والمشاورة، والصلح بين الناس، والأخبار المخبرة عن صفات الأشياء في المعاملات من صفات المبيعات والمؤاجرات والعيوب وفي الوعود والوصايا والأيمان، وكذلك المدائح والشتائم كالقذف فكل ذلك داخل فيما يصدر عن القول.

والعدل في ذلك أن لا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق بإبطالها أو إخفائها، مثل كتمان عيوب المبيع وإدِّعاء العيوب في الأشياء السليمة والكذب في الأثمان كأن يقول التاجر: أُعطيت في هذه السلعة كذا لثمن لم يعطه، ومنه التزام الصدق في التعديل والتجريح، وإبداء النصيحة في المشاورة، وقول الحق في الصلح، وأما الشهادة والقضاء فأمر العدل فيها ظاهر، وإذا وعد القائل لا يخلف، وإذا أوصى لا يظلم أصحاب حقوق الميراث ولا يحلف على الباطل، وإذا مدح أحداً مدحه بما فيه وأما الشتم فالإمساك عنه واجب ولو كان محقاً، فذلك الإمساك هو العدل لأن الله أمر به»[3].

١- في ظلال القرآن، ج ٣ ص١٢٣٣.

٢- سورة الإسراء الآية: ٥٣.

٣- التحرير والتنوير، سماحة الإمام العلامة: محمد الطاهر بن عاشور، ج ٨ ص١٦٦، ١٦٧، ط الدار التونسية للنشر د.ت.

ب- العدل في الشهادة:

وكما أمر الله تعالى بالعدل في الأقوال، أمر بالعدل في الشهادة في جميع الأحوال يتساوى في ذلك الأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، والأغنياء والفقراء.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1].. ففي هذه الآية «يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوَّامين بالقسط أي العدل، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متناصرين فيه، وقوله «شُهَدَآءَ لِلَّهِ» كما قال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾؛ أي أدوها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً خالية من التحريف والتبديل والكتمان، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي اشهدوا الحق ولو عاد ضررها عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً، وقوله: ﴿ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها بل اشهد بالحق، وإن عاد ضررها عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد، وقوله ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ أي لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره والله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، واعلم بما فيه صلاحهما، وقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية، وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشئونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ

١- سورة النساء الآية: ١٣٥.

ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ ﴾ قال مجاهد: تلووا أي تحرفوا الشهادة أو تغيروها.

واللَّي: هو التحريف وتعمد الكذب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾[2]، والإعراض هو: كتمان الشهادة، وتركها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ ﴾[3][4].

٢- العدل في الصلح بين الناس:

ومن مظاهر العدالة في الميدان الاجتماعي، العدل في الصلح بين الناس، فالمجتمع الإسلامي «مجتمع متعاون متكافل، فلا يجوز له أن يرى بعض أبنائه يتخاصمون أو يتقاتلون وهو يقف موقف المتفرج تاركاً النار تزداد اندلاعاً والخرق يزداد اتساعاً، بل على ذوي الرأي والمقدرة أن يتدخلوا لإصلاح ذات البين، متجردين للحق والعدل، مبتعدين عن الهوى والظلم»[5].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[6].

٣- العدل في المداينة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا

١- سورة المائدة الآية: ٨.

٢- سورة آل عمران الآية: ٧٨.

٣- سورة البقرة الآية: ٢٨٣.

٤ تفسير ابن كثير، ج ١ ص٥٦٥.

٥- الحلال والحرام في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٣٠٠، ط مكتبة وهبة السابعة عشرة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٦- سورة الحجرات الآية: ٩.

عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾(١).

يقول الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: «فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُ﴾ هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾، وقوله ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أمر منه بالكتابة للتوثيق والحفظ، وقوله: ﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أي بالقسط والحق، ولا يجر في كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان، وقوله: ﴿ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه في ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فيتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة. وقوله: ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته شيئاً من الدين وليتق الله في

١- سورة البقرة الآية: ٢٨٢.

ذلك ﴿ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ أي لا يكتم منه شيئاً ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه ﴿أَوْ ضَعِيفًا ﴾ أي صغيراً أو مجنوناً ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ ﴾ إما لغيٍّ أو جهل بموضوع صواب ذلك من خطئه ﴿ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ﴾ وقوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة. وقوله: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة والشهود، وهذا مقيد حكم به الشافعي على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط، ورد استدلال من رد المستور بهذه الآية على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً، وقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد. وقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ﴾ قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة وهو قول قتادة والربيع من أنس، وقوله: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ هذا من تمام الإرشاد، وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً أو كبيراً، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الكتاب للحق إذا كان مؤجلاً هو أعدل عند الله وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا وضع خطة، ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتب أن ينساه كما هو الواقع غالباً ﴿ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة»[1].

ثالثاً: العدل في تكافؤ الفرص بين أفراد المجتمع.

إن تكافؤ الفرص بين الأفراد في المجتمع لا يخرج عن معنى العدالة الاجتماعية، ومن ثم فإن تحقيقه في المجتمع هو تحقيق العدالة نفسها..

١- تفسير ابن كثير، ج ١ ص٣٣٤ - ٣٣٦ باختصار.

«والمجتمع البشري –منذ عرف له تاريخ– تسوده هذه العدالة وبالتالي يتحقق فيه تكافؤ الفرص حيناً ويختفي فيه أحياناً؛ ذلك لأن الصراع بين القوة المادية والقوة المعنوية صراع غير متكافئ الطرفين، فالقوة المادية كما تتمثل في المال والملك ووسائل الغلب المادية تتمثل في حياة الشرف وعراقة الأسرة، أما القوة المعنوية فيصورها إدراك الإنسان للحياة وأنها حياة مشتركة يجب أن يسود فيها الاستقرار ويتحكم في توجيهها منطق العقل الذي هو منطق المحبة والأخوة في البشرية ومنطق العدالة الاجتماعية في المجتمع، ولذلك كانت رسالة الرسول ﷺ رسالة عدالة اجتماعية تحقق تكافؤ الفرص للأفراد جميعاً في المجتمع البشرى»[١].

ويقتضي هذا النوع من العدالة أن يتساوى الناس في تهيئة الفرص، وأن يمكن كل إنسان من استغلال مواهبه، ويوسد إليه ما يصلح له من عمل، حتى تظهر جميع القوى من غير أن تهمل قوة، أو تعمل فيما دون طاقتها، أو فيما فوق طاقتها فيفسد الأمر.

وليس معنى هذا أن العدالة الاجتماعية تقتضي إلغاء الفقر في المجتمع، وإنما تعني «أن يوجد بعض ما يمكن أن تتلاقى به أسباب القصور في الإنتاج، وتخفيف الويلات النفسية والمادية، فلا يحقد الفقير على الغني فيكون الخراب، ولا يحرم الفقير من حاجات الحياة الأصيلة من القوت والكساء والمأوى ولا تضيع قوى عاملة كان يمكن أن تعمل وتدر على الجماعة بعملها خيراً وتدفع عن نفسها وعن الجماعة ضراً»[٢]. وهكذا يتبين أن العدالة الاجتماعية لا تتحقق في المجتمع إلا في ظل النظام الإسلامي بما يكفله من تحقيق تكافؤ الفرص بين الأفراد.

١– الدين والحضارة الإنسانية د. محمد البهي: ص٢٤٣، ٢٤٤، ط مكتبة الشركة الجزائرية – الجزائر.

٢– انظر: المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الإمام محمد أبو زهرة، ص١٧٧. وانظر: تنظيم الإسلام للمجتمع: الشيخ محمد أبو زهرة، ص٣٥، ط دار الفكر العربي د.ت.

رابعاً: العدل مع غير المسلمين «أهل الذمة».

إن الإسلام هو دين العدالة يأمر بالعدل مع الناس جميعاً، عدل مع من يحب ومع من يكره، عدل مع المسلم ومع غير المسلم، يبين ذلك ويؤكده قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً، ولهذا قال: ﴿ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[2].

وقد كان رسول ﷺ قمة شامخة في تحكيم كتاب الله وشريعته على المخالفين له في الدين من اليهود الذين حاوروه في المدينة في كل ما رفع إليه من خصوماتهم فيما بينهم وفيما بينهم وبين المسلمين لم يجر في حكمه ولم يزغ عن عدله.

ولقد حذا الخلفاء الراشدون والحكام المسلمون حذو رسول الله ﷺ في وجوب تحري العدل والحكم بالقسطاس المستقيم على غير المسلمين ممن رفعت إليهم خصوماتهم دون ظلم أو جور؛ الأمر الذي أثار انتباه هؤلاء المخالفين إلى عظمة الإسلام، فما وسع الكثير منهم إلا الانجذاب إليه والإيمان به. عن سعيد بن المسيب: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختصم إليه مسلم ويهودي فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال اليهودي: والله لقد قضيت بالحق. فضربه عمر بالدِّرة

١- سورة المائدة الآية: ٨.

٢- تفسير ابن كثير، ج ٢ ص٣١.

ثم قال: وما يدريك؟ فقال له اليهودي: إنا نجد أنه ليس قاض يقضى بالحق، إلا كان عن يمينه ملك وعن شماله ملك يسددانه ويوفقانه للحق ما دام مع الحق، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه[1].

ولعل أظهر جوانب العدالة الاجتماعية مع غير المسلمين «أهل الذمة» هو ما يتعلق بجانب الجزية[2] التي اتخذها المغرضون والمتحذلقون من المستشرقين فرصة للطعن في الإسلام مدعين بأن الجزية دليل على الظلم والقهر والاضطهاد[3]. ونسي هؤلاء الطاعنون في نظام الجزية الإسلامي أن الجزية كانت نظاماً سائداً في العالم كله -قبل الإسلام- يدفعه المغلوب للغالب ولم يكن فيه من معنى الإنسانية شيء يذكر.

يقول الدكتور ألفريد. ج. بتلر عن الحكم الروماني في مصر وكيف كان وضع المصريين قبل دخولهم في الإسلام: «إن حكومة مصر (الرومية) لم يكن لها إلا غرض واحد، وهو أن تبتز الأموال من الرعية لتكون غنيمة للحاكمين ولم يساورها أن تجعل قصد الحكم توفير الرفاهية للرعية أو ترقية حال الناس والعلو بهم في الحياة وتهذيب نفوسهم أو إصلاح أمور أرزاقهم فكان الحكم على ذلك حكم الغرباء، لا يعتمد إلا على القوة ولا يحس بشيء من العطف على الشعب المحكوم»[4].

على أن الجزية في الإسلام تمتاز عما كانت عليه في ظل النظم الرومانية والفارسية وغيرها من النظم الأخرى؛ إذ نقلها الإسلام إلى

١- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الأقضية، باب الترغيب في القضاء بالحق، ج ٢ ص٧١٩.

٢- الجزية: مبلغ زهيد من المال يدفعه غير المسلمين -أهل الذمة- للمسلمين في مقابل حماية المسلمين لهم في الداخل والخارج وتأمينهم على أنفسهم، وذلك بمقتضى العهد والعقد الذي بينهم وبين المسلمين في المجتمع الإسلامي (انظر: المغني: لابن قدامة، ج ١٢ ص٧٥٦).

٣- ومن ذلك ما قاله المستشرق «يوليوس فلهاوزن»: «إن الإسلام عامل الذميين بقسوة واضطهاد وإرهاق وقمع للحريات، وأرهقهم بضرائب كبيرة سميت بالجزية» (انظر: الإسلام في قفص الاتهام: شوقي أبو خليل ص١٣٩ ط دار الفكر - دمشق - الخامسة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م).

٤- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للأستاذ: أبو الحسن الندوي، ص٦٧.

معنى إنساني كريم فجعلها «ثمناً لحماية أعراض المغلوبين وأموالهم ودمائهم وعقائدهم كما جعلها تعويضاً عن عدم اشتراكهم في الحروب الإسلامية، وهذا من أسمى قيم العدالة في الإسلام ونبالة قصده[1].

ولعل ما يؤكد عدالة الإسلام في تشريع الجزية أنها شرعت في مقابل الزكاة المفروضة على المسلمين، فالمسلم يؤدي الزكاة عن نقوده، وعروض تجارتة بنسبة ٢,٥٪، ويؤدي الزكاة عن الغنم والماعز والإبل والبقر بنسب أخرى بينتها كتب الفقه. وطبيعي أن تنفق الزكاة على المسلمين وعلى بعض المنافع العامة التي تشمل المسلمين وغيرهم، كما بينت الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[2].

ونجد من مصارف الزكاة: إعداد الجيش، والإنفاق على الغزاة والمحاربين الذين يدفعون عن أفراد المجتمع ما يدبر لهم من كيد. وهذا معناه: أن الزكاة التي تجبى من المسلمين وحدهم تنفق في بعض شئون الدولة نفعاً للمسلمين والذميين، وتنفق على طوائف خاصة من المسلمين ومن الذميين، ومعناه أيضاً أن المسلمين ساهموا وحدهم بأموالهم فيما لم يقتصر نفعه عليهم، وليس هذا من العدل في شيء، إنما العدل أن يساهم أهل الذمة -وهم أعضاء في المجتمع الإسلامي- بشيء من أموالهم، ولا وسيلة لأن يتحمل الذميون نصيبهم في نفقات الدولة إلا بالجزية لأنهم لا يزكون عن ماشيتهم من إبل وبقر وغنم، ولا عن نقودهم ولا عن عروض تجارتهم، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم[3].

١- العدل والتسامح في ضوء الإسلام: أ. السيد المخزنجي، ص٦٧، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عدد (٨٦)، القاهرة ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢- سورة التوبة الآية: ٦٠.

٣- انظر: مختارات من سماحة الإسلام د. أحمد محمد الحوفي: ص٩٠، ٩١، ط نهضة مصر، د.ت.

ومن هنا يتبين أن الجزية من غير المسلمين هي بمثابة الزكاة من المسلم ليستوي الجميع –مسلماً وذمياً– في واجبهم تجاه المجتمع الذي يظلهم وفي تساويهم في الانتفاع بالمرافق العامة. ولعل ما يدل على أن الجزية من غير المسلمين في مقابل خدمات عامة كالدفاع عن الوطن، وحماية الأرواح والأموال هو «أن الذمي إذا أسلم سقطت عنه الجزية، وكلف بالخدمة العسكرية»[1].

ومن المظاهر التي تؤكد مذهب الإسلام في عدالة الجزية وأنها لم تكن مغنما يسعى إليه الإسلام دون مراعاة للاعتبارات الإنسانية أنه أعفى من الجزية عدة طوائف، منها:

١- المساكين والأرقاء؛ لأنهم لا يملكون شيئاً.

٢- الشيوخ والنساء والأطفال؛ لأن الحرب لم تعلن عليهم ولأنهم لا يقدرون على حمل السلاح.

٣- الأعمى والمقعد – إلا إذا كانوا أغنياء – لأنهم عاجزون عن العمل والكسب، وكذلك المترهبون في الأديرة ما لم تكن لهم أموال خاصة، وكذلك أهل الصوامع.

٤- الصبيان، والمجانين لأنهم غير مكلفين.

ومعنى هذا أن الذين يؤدون الجزية هم الرجال الأحرار العقلاء القادرون على الكسب والعمل، وهؤلاء في الحقيقة هم القادرون على الحرب والاشتراك في الجندية، فلو كانوا مسلمين لوجب عليهم الجهاد دفاعاً عن العقيدة وصيانة للأرواح والأموال، وحماية للوطن من العدوان»[2].

١-انظر: مختارات من سماحة الإسلام د. أحمد محمد الحوفي، ص٩٢.

٢- انظر: نحو مجتمع إسلامي، سيد قطب ص١١٥، ط دار الشروق د.ت. وانظر: الأحكام السلطانية: الماوردي ص١٤٤، وانظر: المغني: لابن قدامة، ج ١٢ ص٦٧٦.

ومن هنا يتبين مدى عدالة الإسلام، وأنها عدالة شاملة تشمل المسلم وغير المسلم لأنها مستمدة من شمولية الإسلام.

المطلب الرابع: منهج الإسلام في تحقيق العدالة الاجتماعية.

على الرغم من المناداة بالعدالة الاجتماعية منذ زمن طويل فإن الظلم الاجتماعي لا يزال حقيقة واقعة في مجتمعاتنا، والذي يدرك حقيقة العدالة الاجتماعية يتبين له من أول لحظة «أن النظام الذي ناشد حرية الفرد والتسامح والرأسمالية والديمقراطية نتيجة للثورة الفرنسية كان بعيدا عن العدالة كل البعد، وكذلك النظام الاشتراكي الحاضر الذي يقبله بعض السذج.. فمن قصور النظام الأول: أنه أطلق العنان للفرد في العدوان على المجتمع، وجعل سيادة المجتمع على الفرد بصدد استخدامه لصالح المجتمع في ضعف ووهن.

ومن قصور النظام الثاني: أنه يسلب الأفراد والقبائل والأمم حرياتها بإعطاء الدولة الصلاحية اللانهائية، وإرخاء عنانها لاستخدام الفرد للمصالح الاجتماعية.

فلما جاء الإسلام بسياسته الحكيمة قدم للعالم منهاجا شاملا وحلا عادلا للخلاص من الظلم الاجتماعي وإقامة العدالة الاجتماعية في ظل فلسفة كلية تمزج بين الروح والمادة، وتجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة، وتوفق بين مطامح الفرد ومصالح المجموع.

وهذه بعض الحلول العادلة التي اتخذها الإسلام لتحقيق العدالة الاجتماعية:

١-احترام الملكية الخاصة إذا تحققت من طريق مشروع مع إيجاد قيود وتكاليف إيجابية وسلبية على المالك تمنعه من الإضرار بغيره وبخاصة الإضرار بالمجتمع.

٢- تحريم الكسب الخبيث من مثل الاتجار في المواد المحرمة كالمسكرات والمخدرات أو الغصب أو السرقة... إلخ.

٣-مصادرة الملكية المجموعة من حرام لحساب الفئات الفقيرة والمحرومة، وإن طال الزمن على تملكها فمضي الزمان لا يحل الحرام في الإسلام.

٤- رعاية التكافل الزماني إلى جوار التكافل المكاني، وهو التكافل بين الأفراد بعضها وبعض بحيث لا يطغى جيل على حقوق الأجيال التي بعده بتبديد الثروة الوطنية أو الإسراف فيها.

٥- تقريب الفوارق بين الأفراد والطبقات بالعمل المخطط الدؤوب على رفع مستوى الفقراء، والحد من طغيان الأغنياء، كيلا يبقى فقر مدقع وبجواره ثراء فاحش عملا بقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ﴾[١].

٦- تنمية الثروة الفردية والجماعية بما لا يضر بقيم المجتمع وأخلاقه وعقائده، لأن الإسلام لا يقبل النمو الاقتصادي على حساب المثل العليا، لذلك منع القرآن حج المشركين وطوافهم بالبيت عرايا، وإن خسر المسلمون من وراء ذلك مكاسب مادية قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[٢].

٧- سد العجز بتسهيل أسباب الحياة للعاجزين عن العمل، ولهذا أوجبت الشريعة رعاية كل ضعيف وخاصة اليتامى قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ﴾[٣].

١- سورة الحشر الآية: ٧.

٢- سورة التوبة الآية: ٢٨.

٣- سورة البقرة الآية: ٢٢٠.

٨-مساءلة من أثرى ثراء مفاجئاً، أو جمع مالاً مشتبهاً في طريقة كسبه أياً كان مركزه، وهو قانون «من أين لك هذا»، وقد بدأه النبي ﷺ ونفذه في أكثر من واقعة.

٩- منع المالك من السرف والترف، والتبذير في ماله؛ لما للجماعة من حق فيه إلى حد جواز الحجر عليه، وغَلّ يديه عن التصرف فيه عملاً بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾[١].

١٠-فرض الزكاة على أغنياء الأمة لترد على فقرائها، والغني من ملك نصاباً من مال نام، والفقير من لا يجد تمام الكفاية.

١١-إعانة ذوي الحاجات الطارئة مثل الغارمين والمدينين وأبناء السبيل «كاللاجئين».

١٢-تحقيق التكافل العام الذي يجعل المجتمع كالجسد الواحد، بدءاً بتكافل الأفراد، فتكافل أهل الحي، فأهل الإقليم فالمجتمع كله بعد ذلك[٢].

١- سورة النساء الآية: ٥.

٢- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، د. يوسف القرضاوي: ص١٢٥ وما بعدها باختصار، الإسلام هو الحل د. محمد عمارة، ص١٠٨، ط دار الشروق، الثانية ١٤١٨هـ -١٩٩٨م.

المبحث الثالث

المؤاخاة

إن أي بناء اجتماعي لا يمكن أن ينهض ويقوم على أسس متينة بغير التآخي المبني على وحدة الإيمان، لهذا كان الأساس الأول الذي اعتمده رسول الله ﷺ في بناء مجتمعه -بعد تأسيس العقيدة- هو التآخي الذي عقده بين المهاجرين والأنصار، فكان مجتمعاً متماسكاً لا خلل فيه ولا اضطراب؛ لأن آصرة الأخوة في الله هي الدرجة الثانية من درجات القوة بعد قوة العقيدة والإيمان.

المطلب الأول: مكانة الأخوة في الإسلام.

أما عن مكانتها في القرآن فقد جاءت النصوص الكثيرة من القرآن الكريم تبين مكانة الأخوة في الله ومنزلة المتآخين يوم القيامة.. ومن هذه الآيات ما يلي:

١- قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾[١].

فهذه الآية تبين أن الأخوة في الله من أعظم النعم التي يمتن الله بها على المجتمع الإسلامي.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾[٢] ففي هذه الآية الكريمة يجعل الله تبارك وتعالى الإخاء صنو الإيمان بين المؤمنين.

يقول الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسير لهذه الآية ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ أي في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين،

١- سورة آل عمران الآية: ١٠٣.

٢- سورة الحجرات الآية: ١٠.

وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب[1]؛ لأن الذي عقد هذه الأخوة هو الله، وما عقده الله تعالى لا تحله يد بشر وإن بلغت من القوة والعتو مبلغاً.

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[2].

فهذه الآية الكريمة تبين أن الأخوة من أوثق الروابط بين المؤمنين يقول سيد قطب –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: هذه الصورة النظيفة الواعية تبرز أهم ملامح التابعين، كما تبرز أخص خصائص الأمة المسلمة على الإطلاق من جميع الأوطان والأزمان. هؤلاء الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار ولم يكونوا قد جاءوا عند نزول الآية في المدينة إنما قد جاءوا في علم الله، وفي الحقيقة القائمة في هذا العلم المطلق من حدود الزمان والمكان سمة نفوسهم أنها تتوجه إلى ربها في طلب المغفرة لا لذاتها، ولكن كذلك لسلفها الذين سبقوا بالإيمان، وفي طلب براءة القلب من الذين آمنوا على وجه الإطلاق ممن يربطهم معهم رباط الإيمان مع الشعور برأفة الله ورحمته ودعائه بهذه الرحمة وتلك الرأفة ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[3].

والحق أن هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تسجل معاني الإخاء وبيان مكانة المتآخين عند الله تعالى؛ وهو ما لا يتسع الحديث لذكره[4].

١- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ج ٩ ص٦١٤٣.

٢- سورة الحشر الآية: ١٠.

٣- سورة الحشر الآية: ١٠.

٤- من هذه الآيات: سورة البقرة الآيتان: ١٦٥، ١٧٨، سورة آل عمران الآية: ١٠٢، وسورة التوبة الآيتان: ٢٣،٢٤، سورة المائدة الآية: ٢، سورة الأعراف الآية: ١٥١، سورة الأحزاب الآية: ٥، سورة الحجر الآية: ٤٧، سورة الحجرات الآية: ٣.

وأما عن مكانة الأخوة في السنة المطهرة، قد وردت فيها أحاديث كثيرة تبين مكانة الأخوة في الإسلام، وعلو منزلة المتآخين عند الله، وإليك طائفة من هذه الأحاديث على سبيل المثال لا الحصر.. ولن نتناولها بشرح فبلاغتها ونصاعة بيانها تغنينا عن ذلك.

١-روى الإمام البخاري بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»[١].

في هذا الحديث إشارة إلى أن الأخوة في الإسلام مطلب شرعي يجب الانتباه إليه.

٢- أكد أن النبي ﷺ على أخوة المسلمين فقال في حديثه الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٢].

٣-كان النبي ﷺ يقرر هذا الإخاء ويؤكده كل يوم أبلغ تأكيد وأوثقه، ومن ذلك أن الرسول ﷺ كان يقول دبر كل صلاة: «اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك، اللهم ربنا رب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»[٣]. بهذا الدعاء كان رسول الله ﷺ يناجى ربه دبر كل صلاة، وإنه ليدلنا أوضح دلالة على مكانة الإخاء الإنساني في رسالة الإسلام.

١- أخرجه الإمام البخاري في كتاب النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع، ج ٩ ص٢٤٢، حديث رقم: (٥١٤٣)، (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، ج ٤ ص١٩٨٦، حديث رقم: (٢٥٦٤).

٣- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، ج ١ ص٣٤٦، وذكره الألباني في ضعيف سنن أبى داود ص ١٤٨، حديث رقم: (٣٢٥) وقال: ضعيف.

٥- ويقول عليه الصلاة والسلام «من عاد مريضاً أو زار أخا له في الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»[١].

فهذه النصوص الكريمة من الكتاب والسنة تبين بوضوح مدى مكانة الأخوة في الإسلام ومنزلة المتآخين عند الله تعالى.

المطلب الثاني: شروط الأخوة الإسلامية.

للأخوة في الله شروط لا بد من توافرها بين المتآخين حتى تؤتي ثمارها المرجوة، ومن أهم هذه الشروط:

١- أن تكون الأخوة خالصة لله:

وذلك بأن يتنزه المتآخون من كل مصلحة ذاتية وأن يتجردوا من كل منفعة شخصية، فعندئذ تؤتي الأخوة أكلها وتحقق في المجتمع ثمراتها، وليس أدل على ضرورة إخلاصها وتجردها من كل مصلحة شخصية ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا زار أخا له في قرية، فأرسل الله تعالى على مدرجته[٢] ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربيها عليه[٣]؟ قال: لا، غير أنى أحببته في الله تعالى. قال الملك: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه[٤] [٥].

١- أخرجه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في زيارة الإخوان، ج ٤ ص٢٤٦، حديث رقم: (٢٠٧٦) وقال: حسن غريب، وذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، ج ٦ ص١٧٦، ط دار الفكر د.ت.

٢- المدرجة: ممر الأشياء على الطريق وغيره، ومدرجة الطريق معظمه (لسان العرب لابن منظور، ج ٢ ص٣٥٢).

٣- أي تقوم بها وتسعى في صلاحها (هامش صحيح مسلم، ج ٤ ص ١٩٨٨).

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب فضل الحب في الله، ج ٤ ص١٩٨٨، حديث رقم: (٢٥٦٦).

٥- انظر: الأخوة الإسلامية د. عبد الله ناصح علوان: ص١٥.

٢-أن تكون الأخوة قائمة على الإيمان:

إن الأخوة والإيمان هما القاعدتان الأساسيتان اللتان تقوم عليهما حياة الجماعة المسلمة، لكي تستطيع أن تضطلع بالأمانة الضخمة التي ناطها اللّه بها وأخرجها للوجود من أجلها. فالإيمان باللّه يورث مراقبة اللّه في كل لحظة من لحظات الحياة، والأخوة في اللّه تجعل من الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء دورها العظيم في الحياة البشرية وفي التاريخ الإنساني، دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحياة على أساس المعروف وتطهيرها من لوثة المنكر[1].

فإذا انفصلت الأخوة عن الإيمان أصيب المؤمنون بالضعف والوهن؛ لأن الإيمان «إذا انفكت عنه الأخوة في اللّه حيل بين المؤمنين وبين التعاون على البر والتقوى وعلى فعل الخير وحيل بينهم وبين القوة ووحدة الصف واتحاد الكلمة... وما ينفصل الإيمان عن الأخوة إلا ويصاب هؤلاء الإخوة بالابتعاد عن الحق وعن الخير والاقتراب من الباطل والشر، بل التعاون على الإثم والعدوان وسائر المعاصي؛ لأن الإيمان يعصم الأخوة عن الانحراف والمعاصي والضلال عن الحق»[2].

٣- أن تكون الأخوة ملتزمة منهج الإسلام:

وذلك بأن يتعاهد المتآخيان على تحكيم شرع اللّه، والرجوع في كل الأحوال إلى هدى سيدنا محمد ﷺ، وإلى هذا أشار النبي ﷺ في حديثه «سبعة يظلهم اللّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة اللّه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في اللّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه...»[3]. أي تعاهدا في حال اجتماعهما على

١- في ظلال القرآن، ج ١ ص٤٤١، بتصرف يسير.

٢- ركن الأخوة د. على عبد الحليم محمود، ص٢٢٩، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م.

٣- رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ج ٢ ص٥١٥، حديث رقم: (١٠٣١).

التزام شريعة الله وتعاهدا في حال تفرقهما على العمل بشريعة الله[1].

ومن هنا كان الرجلان من صحابة رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، وهذا يعني أنهما «كانا يتعاهدان على المنهج الإسلامي، ويتعاهدان على الإيمان والعمل الصالح، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدين... وإذا كانت الأخوة كذلك فيكون كل واحد من المتآخين مصحفاً يمشي على الأرض في سلوكه وأخلاقه ومعاملته، لكونه التزم في الحياة منهج القرآن ومبادئ الإسلام»[2].

٤- أن تكون الأخوة قائمة على التناصح في الله:

وذلك بأن يكون الأخ مرآة صادقة لأخيه، فإن رأى أحدهما من الآخر خيراً أعانه وشجعه، وإن رأى منه خللا أو نقصاً قومه وقدم له النصيحة. وهذه النصيحة الخالصة هي التي عاهد النبي ﷺ عليها أصحابه. فعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم»[3]..

بل نجد النبي ﷺ يجعل التقدم بالنصيحة خصلة ضرورية للمؤمن الذي هو مرآة أخيه إن رأى منه ما لا يعجبه سدده وقومه ووجهه وحاطه بالسر والعلانية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه»[4]..

ويلزم النبي ﷺ كل مؤمن أن يكون ناصحاً لله ولكتابه ولرسوله

١- الأخوة الإسلامية د. عبد الله ناصح علوان: ص١٧.

٢- السابق، ص١٨.

٣- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ج ١ ص٧٥، حديث رقم: (٥٦).

٤- أخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ٨٣، حديث رقم: (٢٤٠) وقال: المحقق: حديث حسن، ط دار المعرفة - بيروت - الأولى ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

ولأئمة المسلمين وعامتهم، فقال: «الدين النصيحة «قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

ومن هنا كان المسلمون الأُوَل يرون أن النصيحة من أقوى صِلاة الأخوة وواجباتها، ومن ذلك قول عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسن صلته وأدى واجب حقه».

وكان الحسن البصرى –رحمه الله– ملحاحاً في الحث على هذا الخلق حتى جعله ثلث العيش فقال: «لم يبق من العيش إلا ثلاث: أخ لك تصيب من عشرته خيراً فإن زغت عن الطريق قوَّمك، وكفاك من عيش ليس لأحد عليك فيه تبعة، وصلاة في جمع تُكفَى سهوها وتستوجب أجرها».

٥- أن تكون الأخوة قائمة على التعاون والتناصر في السراء والضراء:

إن الأخوة الإسلامية توجب على المسلمين أن يتناصروا «لا تناصر العصبيات العمياء، بل تناصر المؤمنين العاملين لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وردع المعتدي، وإجارة المظلوم، فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده في معترك، بل لابد من الوقوف إلى جانبه على أي حال لإرشاده إن ضل، وحجزه إن تطاول والدفاع عنه إن هوجم، والقتال معه إذا استبيح»[2]..

ومن ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون:

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ج ١ ص٧٤، حديث رقم: (٥٥).

٢- خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالي، ص١٧٣، ١٧٤.

ياللمهاجرين، ونادى الأنصار: ياللأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما هذه دعوى أهل الجاهلية؟ «قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر قال: «لا بأس ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر، وإن كان مظلوماً فلينصره»[1]. ومن هنا يشعر الأخ بأنه كثير بإخوانه، وأن قوته لا تتحرك في الحياة وحدها ولكن تساندها قوى إخوانه وتشد أزرها.

المطلب الثالث: حقوق الأخوة الإسلامية.

لكي تؤدي الأخوة دورها المطلوب في كيان الجماعة المسلمة، بيَّنَ الإسلام حقوقها العامة والخاصة تأكيداً على أنها تكاليف وأعباء، وليست كلاماً ولا نظريات فلسفية، وحرصاً على أن تكون الروابط بين المجتمع المسلم روابط ألفة ومحبة.

وحقوق الأخوة في الإسلام تنقسم إلى قسمين:

أ- حقوق عامة.

ب-حقوق خاصة.

أما الحقوق العامة فتتناول الأمور التالية:

١-إفشاء السلام، ٢- رد السلام، ٣-عيادة المريض، ٤-اتباع الجنائز، ٥-إجابة الدعوة إلى فرح أو مناسبة كوليمة العرس مثلاً، ٦-تشميت العاطس، ٧-إبرار المقسم، ٨-نصر المظلوم، ٩-الاهتمام بالمنصوح له، ١٠- التنفيس عن المكروب، ١١- التيسير على المعسر. ١٢- الإغضاء عن العيوب، ١٣- الابتعاد عن الأذى كالحسد والتباغض والظلم وإلى غير ذلك من هذه الحقوق الأخوية اللازمة، والمبادئ الاجتماعية الواجبة.

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، ج ٤ ص١٩٩٨، حديث رقم: (٢٥٨٤).

أما الحقوق الخاصة: فهي أجل وأعظم، لأنها قائمة على استخلاص الصفوة المختارة من إخوة الإيمان.

وهذه الحقوق تتلخص فيما يلي:

حق أخيك في مالك:

ويكون هذا الحق بالمعاونة والمواساة بالمال إذا احتاج إليه، والمواساة بالمال مع الأخوة على مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى: وهي أعلى المراتب أن تؤثره على نفسك، وتقدم حاجته على حاجتك، وهذه مرتبة الصديقين، ومنتهى درجات المتحابين، وهي التي أنزل الله فيها قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[١].

وهذه المرتبة هي التي حققها الصحابة رضوان الله عليهم، فعن أنس رضى الله عنه قال: «لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيعة، فقال له: هلم أقاسمك مالي نصفين ولى امرأتان فأطلق إحداهما فإذا انقضت عدتها فتزوجها، فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق، فدلوه على السوق فما رجع يومئذ إلا ومعه شيء من أقط وسمن قد استفضله...»[٢].

المرتبة الثانية: وهي أن تنزله منزلة نفسك، وترضى بمشاركته ومشاطرته إياك في مالك، وفي هذا يقول الحسن البصرى–رحمه الله– يصف الصحابة ومدى وضوح أمر المشاركة عندهم: «وكان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه»[٣].

المرتبة الثالثة: وهي أدنى مراتب الأخوة، أن ينزل أخاه منزلة عبده

١– سورة الحشر الآية: ٩.

٢– جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في مواساة الأخ، ج ٣ ص٢٢٠، حديث رقم: (١٩٩٨)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٣– إحياء علوم الدين، ج ٢ ص٢٥٨.

أو خادمه ليقوم بحاجته في فضلة ماله، فإذا سنحت له حاجة، وكانت عند أخيه فضلة من حاجته أعطاه ابتداء ولم يحوجه إلى السؤال، فإن أحوجه إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة، بل كان ذلك دليلاً على أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن.. جاء رجل إلى أبي هريرة ﵁ فقال: إني أريد أن أؤاخيك في الله، فقال: أتدري ما حق الإخاء؟ قال: عرفني، قال: أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد؟ قال: فاذهب عني[1].

ب- حق أخيك في نفسك:

وهذا الحق أيضاً له درجات، «أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار. قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكره ثانية فلعله أن يكون قد نسي، فإن لم يقضها فكبر عليه واقرأ هذه الآية: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[2][3].

وأعلاها: «أن تقدم قضاء حوائجه على قضاء حوائجك، وأن تنقذه مما يلم به من خطر ولو كان في ذلك حتفك».

وقد صور الله عز وجل هذا الحق الذي ساقه في كتابه الكريم أروع تصوير عندما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[4]، رداً على قول بني إسرائيل له: ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[5][6].

١- انظر: إحياء علوم الدين، ج ٢ ص٢٥٨.

٢- سورة الأنعام الآية: ٣٦.

٣- إحياء علوم الدين، ج ٢ ص٢٦٠، ٢٦١.

٤- سورة المائدة الآية: ٢٥.

٥- سورة المائدة الآية: ٢٤.

٦- نحو جيل مسلم.. الأخوة في الله، المركز الإسلامي للدراسات والبحوث، ص٣٣، ط دار الطباعة والنشر الإسلامية، د. ت.

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة، فقال: أخي فلان أحوج مني إليه فبعث به إليه، فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر فلم يزل يبعث به واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد أن تداوله سبعة.

فهذه الآثار المباركة تبين مدى ما بلغت به الأخوة الإيمانية في نفوس الجيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم بإحسان، حيث كان الأخ يؤثر أخاه على نفسه ولو كان في أشد الحاجة، ومجتمع أفراده على هذه الدرجة الرفيعة من الإخاء مجتمع يتجه في خطى ثابتة نحو التقدم والبناء، فلا حقد ولا حسد، ولكن محبة ووئام.

ج- حق أخيك في لسانك:

قد لا يحتاج أخوك إلى مالك لأن الله أغناه من فضله، وقد يتوفر له من يقوم له على حوائجه دون أن يلجأ إليك لتعيينه أو تأخذ بيده، ولكنه بحاجة دائمة إلى حق لسانك، فما فائدة مالك ونفسك إن كان هذا مصحوباً بقوارض الكلم؟ ومن هنا وجب على المسلم أن يرعى حق أخيه في لسانه. وحقوقه في لسانك ثلاثة:

أولها: أن تصمت عن كل ما يكره شريطة عدم تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تسخر منه، ولا تلمزه، ولا تكذبه الحديث، ولا تشتمه، ولا تلقبه بما يكره، ولا تفش له سراً، ولا تذكر أهله وأحبابه بسوء، ولا تكشف عن عيب وجدته فيه، وإنما تستر عيوبه ما وجدت إلى ذلك سبيلا[1].

ثانيا: أن نتكلم بما يحب أخوك الاستماع إليه شريطة ألا يجلب ذلك غروراً لنفسك أو أن ينحرف بك عن جادة الصدق إلى جادة الكذب، ومما يدخل في هذا الحق أيضاً ترك المراء والجدل الخبيث..

١- نحو جيل مسلم.. الأخوة في الله ص٣٦، ٣٧.

قال الحسن البصري: إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم فكر حليم، أو مفاجأة لئيم[1].

ثالثها: الدعاء له حياً أو ميتاً، لأن الدعاء علامة من علامات المحبة التي تدل على الاهتمام بالأخ والغيرة عليه، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «إذا دعا المرء لأخيه بظاهر الغيب قالت الملائكة: «آمين ولك بمثله»[2]. فلندع لبعضنا في دنيانا هذه، فإن سبق أحدنا أخا إلى ربه فليدع له وليستغفر له.

د- حق أخيك في قلبك:

وأما حق أخيك في قلبك فتجمعه كلمتان: العفو، والوفاء. أما العفو عن أخيك: فلأنك تعلم أنه ليس معصوما عن الأخطاء، وإلا كان نبيا من أنبياء الله، فلا بد له من هنات وسقطات.

فمن الوفاء لأخيك أن تعفو عن زلاته، وتتغاضى عن هفواته، وقد أمر الله بالعفو عن الناس في كثير من آياته ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[3]، ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4].

وقد وصف الله عز وجل المؤمنين بقوله: ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[5] وهل تكون رحيما إن لم تعف عن زلة أخيك، ووصفهم أيضا بقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[6] وهل تكون ذليلا على المؤمنين إن لم تعف عن زلاتهم وتصبر على هفواتهم؟[7].

١- إحياء علوم الدين، ج ٢ ص٢٦٧.

٢- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ج ١٠ ص١٥٢، وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

٣- سورة الشورى الآية:٤٠

٤- سورة النور الآية: ٢٢.

٥- سورة الفتح الآية: ٢٩.

٦- سورة المائدة الآية: ٥٤.

٧- ركائز الدعوة د. مجدي الهلالي، ص ١٣١، ط دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

وأما الوفاء: «فمعناه الثبات على الحب لأخيك وإدامته إلى الموت معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله بظله: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[1] [2].

تلك هي أهم حقوق الأخوة الإسلامية التي أرادها الله ورسوله ﷺ، ولا شك أن المجتمع المسلم حينما تتجسد فيه هذه الحقوق يكون مجتمعا قويا متراصا متوادا لا يمكن أن تزعزعه الزلازل، ولا حادثات النوازل.

المطلب الرابع: بعض الآفات التي تضر بالأخوة الإسلامية.

الله عز وجل حرم جميع الرذائل التي تؤدي إلى قطع أواصر الأخوة الإسلامية، ولهذا وجدنا القرآن الكريم بعد أن أرسى هذه القاعدة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[3] أتبع ذلك بالنهي عن الرذائل التي تتنافى معها، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

ففي هذه الآيات حرم الله عز وجل جملة أخلاق ذميمة صيانة لأخوة صان با لأخوة الإسلامية.

١- أول هذه الرذائل.. السخرية بالناس، «فلا يحل لمؤمن يعرف

١- سبق تخريجه.

٢- إحياء علوم الدين، ج ٢ ص٢٧٧.

٣- سورة الحجرات الآية: ١٠.

٤- سورة الحجرات الآيتان: ١١، ١٢.

الله، ويريد الدار الآخرة، أن يسخر من أحد من الناس أو يجعل الأشخاص موضع هزئه وسخريته وتندره ونكاته، ففي هذا كبر خفي، وغرور مقنع، واحتقار للآخرين، وجهل بموازين الخيرية عند الله، ولذا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[١].

٢-التنابز بالألقاب: وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[٢].

ففي هذا المقطع من الآية: يستجيش الله سبحانه عاطفة الأخوة الإيمانية، ويذكر المؤمنين بأنهم نفس واحدة، فمن لمز أخاه فإنما يلمز نفسه في الحقيقة. ومن اللمز المحرم التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها، ويحسون فيها سخرية وعيباً، ومن حق المؤمن على المؤمن ألا يناديه بلقب يكرهه ويزري به، ومن أدب المؤمن ألا يؤذي أخاه بمثل هذا، وقد غير رسول الله ﷺ أسماء وألقابا كانت في الجاهلية لأصحابها، أحس فيها بحسه المرهف وقلبه الكريم بما يزري بأصحابها أو يصفهم بوصف ذميم[٣].

٣-سوء الظن: إن الإسلام يريد أن يقيم مجتمعه على صفاء النفوس وتبادل الثقة، لا على الريب والشكوك، والتهم والظنون والتخون للأهل والناس في غير محله. لهذا جاء القرآن الكريم بالنهي للمسلم أن يسيئ ظنه بأخيه المسلم دون مسوغ ولا بينة ناصعة، لأن الأصل في الناس أنهم أبرياء، ومن ثم فلا يصح أن تعرض ساحة البريء للاتهام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[٤] [٥].

١- سورة الحجرات الآية: ١١.

٢- سورة الحجرات الآية: ١١.

٣- في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، ص٣٣٤٤، بتصرف يسير.

٤- الحلال والحرام في الإسلام د. يوسف القرضاوي: ص٣٠٢، ٣٠٣.

٥- سورة الحجرات الآية: ١٢.

٤- التجسس: إن عدم الثقة في الآخرين يدفع إلى عمل قلبي باطن هو سوء الظن، وإلى عمل بدني ظاهر هو التجسس، والإسلام يقيم مجتمعه على نظافة الظاهر والباطن معاً، ولهذا قرن النهي عن التجسس بالنهي عن سوء الظن، وكثيراً ما كان هذا سببا لذاك.. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾[1].. قال الألوسي -رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية: «ولا تجسسوا أي: ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم، وتستكشفوا عما ستروه»[2].

هكذا يقاوم القرآن الكريم هذا العمل الدنيء الذي يقضي على الأخوة الإسلامية من القواعد، فالناس في الإسلام لهم «حرياتهم وحرماتهم وكرامتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال، ومن ثم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر -مهما يكن- لانتهاك حرمات النفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس، فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم، وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم، وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم، وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها.. فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق، وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظاً لحقوق الإنسان بعد ألف وأربعمائة عام؟»[3].

وهكذا يصبح للناس في الإسلام حرماتهم وحرياتهم فلا تمس بسوء تحت أي ذريعة أو ستار.

١- سورة الحجرات الآية: ١٢.

٢- روح المعاني: للعلامة الألوسي، ج ٢٦ ص١٥٧.

٣- في ظلال القرآن: سيد قطب، ج ٦ ص٣٣٤٦.

٥- الغيبة: وقد حدد الرسول ﷺ مفهومها للصحابة -رضوان الله عليهم- بقوله: «أتدرون ما الغيبة؟ «قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»[١].

وما يكرهه الإنسان يتناول خَلْقَه وخُلُقَه ونسبه، وكل ما يخصه، عن عائشة -رضى الله عنها - قالت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا: تعني أنها قصيرة، فقال النبي ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»[٢]. ومن هنا يتبين أن الغيبة مظهر من مظاهر السلبية في المجتمع، ومعول من معاول الهدم، ومن ثم نهى الله عنها، ونفر منها.

المطلب الخامس: وسائل تعميق الأخوة الإسلامية.

لقد وضع الإسلام من المبادئ العملية والوسائل الإيجابية في توثيق عرى المحبة وتعميق روح الأخوة ما إن أخذ بها المتآخون في الله، وعملوا بمقتضاه زادت أخوتهم مع الأيام توثيقاً.

وهذه أهم الوسائل في تعميق روح الأخوة الإسلامية:

١-إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه: وذلك لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه»[٣].

٢-إذا فارق الأخ أخاه فليطلب منه الدعاء في ظهر الغيب؛ وذلك لما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن

١- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب تحريم الغيبة، ج ٤ ص٢٠٠١، حديث رقم: (٢٥٨٩).

٢- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب الغيبة، ج ٤ ص٥٦٧. والترمذي، كتاب صفة القيامة، باب (١٩)، ج ٤ ص٧٢، حديث رقم: (٢٦٢٤) وقال: حديث حسن صحيح.

٣- سبق تخريجه.

له، وقال له: «يا أخي، أشركنا في شيء من دعائك ولا تنسنا»[1].

٣-إذا لقي الأخ أخاه فليطلق وجهه عند اللقاء: لقوله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق»[2].

٤ – إذا لقي الأخ أخاه فليبادر إلى مصافحته: لقوله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»[3].

٥-أن يكثر من زيارة أخيه: لقوله ﷺ فيما أخبر عن رب العزة جل وعلا: «وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتباذلين في»[4].

٦ – أن يهنئه ويدخل السرور عليه عند بزوغ المناسبة: لقوله ﷺ: «من لقى أخاه بما يحب ليسره ذلك سره الله عز وجل يوم القيامة»[5].

٧ – أن يقدم له الهدية إذا وجدت المناسبة: لما روي عن عائشة مرفوعاً: «تهادوا تحابوا»[6].

٨ – أن يبدى له اهتماماً بالغاً في قضاء حوائجه: لقوله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة...»[7].

١- أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب الدعاء، ج ٢ ص١٦٩، حديث رقم: (١٤٩٨)، وقال المحقق: أخرجه الترمذي في الدعوات، حديث رقم: (٣٥٥٧) وقال حسن صحيح.

٢- أخرجه الإمام مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ج ٤ ص٢٠٢٦، حديث رقم: (٢٦٢٦).

٣- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في المصافحة، ج ٤ص١٧٤وقال: حديث حسن غريب.

٤- سبق تخريجه.

٥- أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب البر والصلة، باب فضل قضاء الحوائج، ج ٨ ص١٩٣، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير وإسناده حسن.

٦- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب البيوع، باب الهدية، ج ٤ ص١٤٦، قال: وفيه المثنى أبو حاتم ولم أجد من ترجمته وبقية رجاله ثقات، وفي بعضهم كلام.

٧- سبق تخريجه.

٩ – أن يؤدي له حقوق الأخوة كاملة وقد سبق الحديث عنها[١].

المطلب السادس: أهمية الأخوة في بناء المجتمع.

إن أي بناء اجتماعي لا يمكن أن ينهض ويقوم على أسس متينة بغير التآخي المبني على وحدة الإيمان.

وتظهر أهمية هذا الأساس في الجوانب التالية:

أولاً: إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها، «ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة، لا يمكن أن تتألف منها دولة»[٢].

ثانياً: إن المجتمع –أي مجتمع– إنما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتثرة متفككة بشيء واحد، وهو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائمين طبق ميزان العدل والمساواة فيما بينهم، فذلك هو المجتمع العادل، وإن كانا قائمين على الحيف والظلم، فذلك هو المجتمع الظالم.

ولا شك أن الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لسلامة العدالة والمساواة وتطبيقها على خير وجه في المجتمع، إنما هي التآخي والتآلف، يليها بعد ذلك ضمانة السلطة والقانون. من أجل هذا، اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساساً لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع

١– حين يجد المؤمن حلاوة الإيمان، د. عبد الله ناصح علوان، ص٢٦ وما بعدها باختصار

٢– فقه السيرة د. البوطي، ص١٤٨ ط دار السلام، السادسة ١٤١٩هـ –١٩٩٩م.

نظام اجتماعي في العالم، ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد في شكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة، ولكنها إنما تأسست وقامت على تلك «الأرضية» الأولى، ألا وهي الأخوة الإسلامية التي لولاها لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي إيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه[1].

ثالثاً: إن أعباء الدنيا جسام والمتاعب «تنزل بالناس كما يهطل المطر فيغمر الخصب والجدْب، والإنسان وحده أضعف من أن يقف طويلاً تجاه هذه الشدائد، ولئن وقف إنه لباذل من الجهد ما كان في غنى عنه لو أن إخوانه أهرُعُوا لنجدته وظاهروه في إنجاح قصده، وقد قيل: «إن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه»، ومن ثم كانت الأخوة الخالصة نعمة مضاعفة، لا نعمة التجانس الروحي فحسب، بل نعمة التعاون المادي كذلك»[2].

ومن هنا يتبين أن الإخاء كان تجربة رائدة اعتمدها رسول الله ﷺ حجر الزاوية في بناء المجتمع الجديد وضرب بها مثلاً في قيام المجتمع المتحاب، المتعاون على البر والتقوى، بعد أن اجتاحت موجة المادية والعصبية جميع المجتمعات الجاهلية.

ومما يجدر ذكره أن معارضي الإسلام منذ عصر النبوة أدركوا أهمية هذا الإخاء في ترابط المجتمع وتماسكه، وأن الأخوة الإسلامية هي التي تستطيع أن تسُدَّ كل ثغرة أمام المسلمين، وأن تؤمن لهم وحدتهم بأنواعها العديدة، وأن تهيئ لهم الاتحاد الذي يجعل من المجتمعات الإسلامية بنياناً يشد بعضه بعضاً، ويساند بعضه بعضاً،

١- المرجع السابق: ص١٤٨، ١٤٩.

٢- خلق المسلم: الشيخ محمد الغزالي، ص١٧٣.

ويكمل بعضه بعضاً.. فأجمعوا أمرهم وشركاءهم على إبعاد المجتمع الإسلامي عن روح الإخاء.. يقول العلامة ابن كثير -رحمه الله- في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلاً معه، وأمره أن يجلس بينهم، ويذكر لهم ما كان من حروبهم يوم بعاث، وتلك الحروب ففعل.. فلم يزل دأبه حتى حميت نفوس القوم، وغضب بعضهم على بعض، وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فجعل يسكتهم ويقول: «أبدعوى الجاهلية وأنا بينكم أظهركم؟»، وتلا هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم[1].

فهذا الموقف -وغيره كثير- يبين أن أعداء الإسلام يتحينون الفرصة من أجل القضاء على صرح الأخوة الإسلامية. كما بين أن أعداء الإسلام لا يطمعون في المسلمين إلا بعد أن يعملوا ما في وسعهم على شق صفوفهم وتفتيت أخوتهم.

المطلب السابع: ثمرات الأخوة الإسلامية.

إن الأخوة الصادقة حينما تتحقق معالمها في مجتمع من المجتمعات، فإن هذا المجتمع يصل في بناء العزة والمجد إلى أفضل الثمرات وأعظم النتائج، ومن أظهر هذه الثمرات ما يلي:

١-إنها السبيل إلى الاستظلال بظل الله الذي لا ظل إلا ظله: فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم

١- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير، ج ١ ص٣٨٩.

لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ بعبادة الله، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه[1].

٢-إنها السبيل إلى الإيمان ودخول الجنة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2].

٣-إنها الطريق إلى علو المكان في الآخرة: فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»[3]، فهم على منابر عالية لأنهم قد استعلوا على أهوائهم وحظوظ أنفسهم في الدنيا، واستعلوا على كل طاغوت وباطل... فكان الجزاء من جنس العمل أن جعلهم الله في منابر عالية.. وكذلك وصف المنابر بأنها من نور لأنهم ساروا على نور الله في الدنيا على الطريق المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا هالك[4].

٤-إنها الثمن لحلاوة الإيمان: فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله»[5].

٥-إنها الطريق إلى محبة الله سبحانه: فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن

١- رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، ج ٢ ص٥١٥، حديث رقم: (١٠٣١).

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان، ج ١ ص٧٤، حديث رقم: (٥٤).

٣- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج ٥ ص٢٣٩، ط دار الفكر العربي، د.ت. وقال المنذري في الترغيب: رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

٤- انظر: الأخوة الإسلامية، جاسم محمد مهلهل: ص٧٩، ٨٠.

٥- جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ج١ ص٦٦، حديث رقم: (٤٣).

النبي ﷺ «أن رجلاً زار أخا له في قرية أخرى فأرصد له على مدرجه ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربيها عليه؟ قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى قال: «فإني رسول الله إليك أخبرك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[1].

٦-إنها السبب لمغفرة الذنوب: يقول الرسول ﷺ: «إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم فأخذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما تتحاتّ الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف، وإلا غفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر»[2].

وبعد، فهذه بعض الثمرات الدنيوية والأخروية التي تكتنف الذين يسيرون في طريق الأخوة في الله، ويسعون في أن يكونوا عباد الله إخواناً، وهي نصوص واضحة في منطوقها، بينة في مفهومها لا تحتمل تأويلاً.

١- سبق تخريجه.

٢- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، ج٨ ص٣٧، وقال: رواه الطبراني، ورجاله ورجال الصحيح غير سالم بن عيلان وهو ثقة.

المبحث الرابع

الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية

إن هذا الأساس من أوسع أسس النظام الاجتماعي أثراً وأكثرها نفعاً والتصاقاً بأفراد المجتمع وجماعاته، لأنه يشتمل على ما يجب عمله تجاه المجتمع أفراداً، وجماعات، على اختلاف الأديان والأجناس واختلاف القرابة وأنواع الصلات.

والمتتبع لسياق القرآن الكريم وما به من قضايا وأحكام، يجد أن أخطر الأمور فيه بعد العقيدة ووسائل غرسها في النفوس هو موضوع الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من الحديث عن حقوق وواجبات وآداب اجتماعية يلزم الحرص عليها، والوفاء بأدائها، وإلا فهناك سور بأكملها ذات اهتمام خاص بجوانب اجتماعية كثيرة ذات أهمية بالغة مثل سورة النساء، وسورة التوبة، وسورة النور... وغيرها، بل لسنا مبالغين إذا قلنا إن القرآن الكريم في حقيقته عبارة عن رسائل من الله تعالى إلى المجتمع.

وسيقتصر الحديث في هذا المبحث -إن شاء الله- عن أهم الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية التي لها أثر واسع في حفظ الروابط الاجتماعية، والتي جاء بها الإسلام لتظل الحياة الاجتماعية آمنة ذات طابع نظيف وبناء متين.

ويتكون هذا المبحث من مطلبين:

المطلب الأول: الحقوق والواجبات الاجتماعية.

إن مراعاة حقوق الآخرين والاهتمام بأداء الواجبات الاجتماعية من أعظم الأمور التي حث عليها الإسلام لأنها تمثل «الضمانات التي تؤمن

نفوس الناس وتطمئن قلوبهم وتؤكد الروابط الاجتماعية والإنسانية فيما بينهم فيتحقق الحب ويوجد التعاون والتناصر ويتوفر التوقير والإجلال ويكثر التواصي بالحق ويرتفع الظلم ويعيش المسلمون في مجتمعهم إخوة متحابين متضامنين لا شحناء ولا بغضاء بينهم»[١].

ومن هنا فإن عدم الاهتمام بالواجبات الاجتماعية وعدم رعاية حقوق الآخرين من شأنه أن «يمزق الصلات، ويقطع روابط الأخوة، ويورث نار العداوة، ويفجر أسباب التحطيم في المجتمع، وعلى الذين يتهاونون في القيام بحقوق الآخرين أن يتحملوا تبعات ضياع هذا المجتمع المسلم، وسقوطه وشقائه، وحين يتمزق المجتمع المسلم، ويسقط هذه السقطات يضيع أمنه واستقراره، وتضيع عزته وكرامته ويضيع رخاؤه وهناءة عيشه، ثم يضيع على أثر ذلك المال والأرض والدين والإنسان»[٢].

وعرضنا لهذه الحقوق وتلك الواجبات لا يعني الشمول، وإنما إبراز أهم الحقوق والواجبات التي لها أثر اجتماعي مباشر في تحقيق العلاقات الطيبة بين الأفراد وأداء الواجب فيما بينهم. ومن أهم الحقوق والواجبات الاجتماعية ما يلي:

أولاً- حقوق الأقارب والأرحام[٣]:

إن أداء حقوق الأقارب دليل كمال الإيمان، وهي من قيم الإسلام، ولذلك دعا الله عز وجل بوفائها في أكثر من موضع في كتابه.. قال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾[٤].

١- الدين والحياة، المكتب الفني لنشر الدعوة الإسلامية، ص ١، ط الإدارة العامة للدعوة، د.ت.

٢- السلوك الاجتماعي في الإسلام: الشيخ حسن أيوب، ص٢٣، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

٣- وهي الحقوق التي يجب على القريب أن يؤديها لأقاربه، فهي حقوق من جانب وواجبات من جانب آخر، حقوق لمن تؤدي له، وواجبات على من يؤديها.

٤- سورة الإسراء الآية: ٢٦.

وإنما كان هذا التأكيد برعاية هذا الحق؛ لأن القرابة «مظنة الاتحاد والألفة، والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان ذلك أشق على القلب، وأبلغ في الإيلام، وكلما كان أقوى كان دفعه أوجب، فلهذا وجب رعاية حقوق الأقارب»[1].

ومن الحقوق المؤكدة لذوي القربى صلتهم والإحسان إليهم، وفي هذا يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾[2].. يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: «أي واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها»[3].

والرحم التي توصل على نوعين:

أ – عامة.

ب– خاصة.

فالعامة «رحم الدين وتجب صلتها بالتواد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة». والرحم الخاصة. «تزيد بالنفقة على القريب وتفقد حاله والتغافل عن ذلته. والمعنى الجامع: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا في حق المؤمنين، وأما الكفار والفساق فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى»[4].

١– التفسير الكبير: الفخر الرازي، ج٣ ص١٦٦، ط دار الكتب العلمية– طهران، الثانية، د.ت.

٢– سورة النساء الآية: ١.

٣– تفسير القرآن العظيم، ج١ ص٤٤٨.

٤– سبل السلام: الصنعاني، ج ٤ ص١٦٢، ط الحلبى، الرابعة ١٣٧٩هـ –١٩٦٥م. وانظر: تحفة الأحوذي، ج٦ ص٣٥، ط دار المعرفة، الثانية ١٣٨٥ه.

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ كثيراً ما يتعهد المسلمين بهذا الحق –حق صلة الأرحام والإحسان إليهم– ومن شديد اهتمامه بهذا الأمر نراه قد ضمنه في وصاياه الخالدة لتستمر في حياة الأجيال والمجتمعات كلها.. فعن أبي ذر قال: «أوصاني خليلي ﷺ بخصال من الخير: أوصاني بأن لا أنظر إلى من هو فوقي، وأن أنظر إلى من هو دوني، وأوصاني بحب المساكين والدُّنُو منهم، وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت، وأوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مراً، وأوصاني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة»[1].

وإنما جاء هذا التأكيد من الكتاب والسنة على صلة الرحم والإحسان إليهم؛ لأن العائلة التي تتكون من الأرحام والأقارب في نظر الإسلام «بمثابة الأم الشرعية لولادة المجتمع الكبير، وولادة الأمة القوية، فمن العائلة يستمد المجتمع وجوده وتماسكه ووحدته»[2].

ثانياً: حقوق الجوار وواجباته[3]:

إن مراعاة حقوق الجوار دليل كمال الإيمان، وعنوان المودة والترابط بين أفراد المجتمع. وأساس ذلك «أن الجار يعتبر إنساناً داخلاً في جوار جاره؛ أي في أمانه وعهده.. وذلك هو تصوير الإسلام؛ إذ ينظر لأفراد

١– أخرجه ابن حبان في صحيحه، ج ١ ص٣٣٧، حديث رقم: (٤٥٠)، وقال الهيثمي في المجمع، ج ٨ ص١٥٤: رواه الطبراني في الصغير والكبير والبزار، ورجال الطبراني رجال الصحيح غير سلام بن المنذر، وهو ثقة.

٢– نظرة إسلامية جديدة للتربية: حسين أحمد شحاتة، ص ١١٧.

٣– اختلف في حد الجوار فجاء عن علي رضي الله عنه: من سمع النداء فهو جار، وقيل من ساكن رجلا في محله أو مدينه فهو جار، قال تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (سورة الأحزاب الآية ٦٠)، فجعل تعالى اجتماعهم في المدينة جواراً، وقيل: إن حد الجار أربعون جاراً من كل ناحية (تفسير القرطبي، ج ٣ ص١٧٥٥).

المجتمع على أنهم جميعاً وحدة واحدة متلاحمة متماسكة يعززها الترابط والإخاء، ويجللها الود والأريحية، وهو تصور يجيء مناهضاً للحياة الاجتماعية القائمة على الأنانية البحتة»[1].

ومن هنا فقد اهتم القرآن الكريم والسنة المطهرة بالجار اهتماماً كبيراً، فالذي يتأمل في كتاب الله يجد أنه وضع حقوق الجار مع حق الله، وحق الوالدين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[2].

كما أوصت السنة النبوية بالجار خيراً من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[3]. ففي هذا الحديث إشارة إلى أن «الجوار ضرب من ضروب القرابة فهو قرب بالنسب، وهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب ما لا يأنس بنسيبه البعيد، ويحتاجان إلى التعاون والتناصر ما لا يحتاج الأنسباء الذين تناءت ديارهم، فإذا لم يحسن كلٌ منهما للآخر لم يكن فيهما خير لسائر الناس»[4].

ومن أجل هذا فقد شرع الإسلام حقوقاً للجار وألزم المسلمين بها، وهذه الحقوق هي في نفس الوقت واجبات على من بذلت له هذه الحقوق تجاه جيرانه.

١- الإنسان في الإسلام، د. أمير عبد العزيز، ص١٣٠، ط مؤسسة الرسالة، الأولى ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٢- سورة النساء الآية: ٣٦.

٣- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان به، ج ٤ ص٢٠٢٥، حديث رقم: (٢٦٢٥).

٤- تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج ٥ ص٧٥.

ومن أهم هذه الحقوق ما يلي:

١- الإحسان إليه وإكرامه:

إن إكـرام الجـار والإحسـان إليـه مـن علامـة أهـل الإيمـان، يقول النبيﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[١]. وقال صلى الله عليه وسلم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٢].

ومن إكرام الجار والإحسان إليه تقديم الهدية له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «يا نساء المسلمات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن[٣] شاة»[٤]. والمعنى: «أي لا تحقرن جارة أن تهدي إلى جارتها شيئاً ولو أنها تهدي لها ما لا يتنفع به في الغالب، وهو كناية عن التحابب والتوادد، فكأنه قال: لتوادد الجارة جارتها بهدية ولو حقرت فيتساوى في ذلك الغني والفقير»[٥].

وكلما كان الجار أقرب كان أولى بالإحسان والإكرام؛ فعن عائشة – رضى الله عنها– قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارتين فإلى أيهما أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»[٦].

١- جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحس على إكرام الجار والضيف، ج ١ ص٦٩، حديث رقم: (٤٨).

٢- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحس على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت، ج ١ ص٦٨، حديث رقم: (٤٧).

٣- فرسن: بكسر الفاء وسكون الراء حافر الشاة (فتح الباري: لابن حجر، ج ١٠ ص٥٣٧).

٤- أخرجه البخاري في فتح الباري، كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، ج١٠ ص٥٣٦، حديث رقم: (٦٠١٧).

٥- فتح الباري: لابن حجر، ج ١٠ ص٥٣٧.

٦- أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب حق الجوار في قرب الأبواب، ج١٠ ص٥٣٩، حديث رقم: (٦٠٢٠) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

والحق أن إكرام الجار والإحسان إليه لا يقف عند نوع معين من أنواع الإكرام لاختلاف هذه الأنواع باختلاف الجيران والمناسبات وحالة كل جار وما ينزل به، كما تختلف باختلاف الغنى والفقر، والعسر واليسر، والبعد والقرابة، والقول في ذلك أن ترجو لجارك الخير وتقدم له ما استطعت من خير أو معروف.

٢- كف الأذى عنه:

إن كف الأذى عن الجار «خلق كريم يهيئ القلوب للخير، وحين يحس الجار بسلام مع جاره ويراه يكف الأذى عنه ويمنع الشر من طريقه، يطمئن قلبه وترتاح نفسه، فيصبح مستعداً لقبول ما يدعو إليه جاره من الخير»[١]. ومن أجل هذا حذر النبي ﷺ من خطر إيذاء الجار وعظم شؤمه وسوء منقلبه، فقال عليه الصلاة والسلام: «والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[٢][٣]..

فهذه يمين مغلظة من رسول الله ﷺ ينفي بها كمال الإيمان عمن يؤذي جاره، بل إن النبي ﷺ حرم دخول الجنة على من يقوم بإيذاء جاره فقال: «والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»[٤].

وإنما كان هذا الحكم من رسول الله ﷺ لمن يؤذي جاره، لأن إيذاء الجار يعد «خيانة وجحوداً وتنكراً لما يفعله الجار من أجل جاره، حيث إن جارك

١- الدعوة الفردية فقهاً وتطبيقاً، د. يسرى محمد هاني، ص١٩، بدون بيانات.

٢- جمع بائقة: وهي الداهية (لسان العرب: لابن منظور، ج١ ص٣٨٨).

٣- أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، ج١٠ ص٥٣٤، حديث رقم: (٦٠١٦) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٤- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، ج١ ص٦٨، حديث رقم: (٤٦).

أول من يسمع صريخك، ويرى النار في دارك، ويشعر بما أنت فيه من ألم وعذاب، فيهرع إليك مبادراً إلى مساعدتك في ظلمة الليل وبرد الشتاء وحر الصيف وهجعة الناس، وهو الذي تطلب معونته فتجده بجانبك، وتترك زوجتك في جواره وأنت آمن، وتدع مالك ومتاعك في دارك ثم تغيب اعتماداً على أمانته»[1].

٣- احتمال الأذى منه:

للجار فضل في أن يكف عن جاره الأذى، ولكن عليه أيضاً أن يتلقى أذاه بالصفح والحلم، لا سيما إذا صدر منه من غير قصد.. يقول الإمام الغزالي – رحمه الله –: «واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط، بل احتمال الأذى إذا صدر منه»[2]، ومن أجل هذا حث النبي ﷺ الجار على أن يصبر ويحتمل ما يواجهه به جاره من أنواع الشرور حتى يكتب عند الله من الصابرين، فإنه لا يصبر على أذى جاره إلا من آثر كريم رحمة الله تعالى على الرغبة في الانتقام ورد الأذى.

٤- صيانة عرضه وماله ونفسه:

إن حماية الجار وصيانة عرضه وماله من أنبل المكارم الخلقية في نظر الإسلام، والأصل في حمايته وصون ماله وعرضه قول النبي ﷺ: «...كل المسلم على المسلم حرام؛ ماله وعرضه ودمه»[3]. فهذا الحديث يحمل تحذيراً شديداً لمن تسول له نفسه الاعتداء على عرض جاره أو ماله.

٥- تعليمه وإرشاده:

ومن حق الجار على جاره أن يجتهد في تعليم جاره وأن يفقهه في أمور

١- السلوك الاجتماعي: الشيخ حسن أيوب، ص٢٥٥.

٢- إحياء علوم الدين، ج٢ ص٢١٣ بتصرف يسير.

٣- جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ج٢ ص٨٨٦، حديث رقم: (١٤٧).

دينه، وأن يأمره بالمعروف، وينهاه عن المنكر، لأن الجار مسئول عن جاره يوم القيامة.. يقول النبي ﷺ: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم؟ وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم العقوبة»[1]. فما أحوج المسلمين في هذا العصر إلى هذه النصيحة النبوية فيقوم الجار بنصح جاره وتعليمه أمور دينه.

ثالثاً: حقوق وواجبات غير المسلمين في المجتمع المسلم.

أما حقوق غير المسلمين الذين كانوا تحت سلطان الدولة الإسلامية وهم الذميون، فقد منحهم الإسلام من الحقوق ما يعجز أي نظام بشري على تحقيقه والتي لم يستطيعوا أن يحصلوا عليها من قبل حتى مع أبناء ملتهم الذين حاكموهم لمجرد أنهم خالفوهم المذهب.

ومن أهم الحقوق التي حصل عليها أهل الذمة في المجتمع الإسلامي ما يلي:

١- الحرية الدينية:

وهذا الحق واضح بنص القرآن الكريم قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

١- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب العلم، باب في تعليم من لا يعلم، ج١ ص١٦٤، وقال: رواه الطبراني في الكبير وفيه بكير بن معروف، قال البخاري: ارم به، ووثقه أحمد في رواية وضعفه في أخرى، وقال ابن عدى: أرجو أنه لا بأس به.

٢- سورة البقرة الآية: ٢٥٦.

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية «أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه واضح جلي دلائله وبراهينه، إلى أن يكره أحدا على الدخول فيه بل من هداه الله للإسلام دخل على بينة، ومن أعمى الله قلبه لا يفيده الدخول في الدين مكرها»[1].

كما أعطاهم الإسلام الحق في ممارسة شعائرهم الدينية، فقد جاء في عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء والقدس « هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود»[2].

٢- حماية دمائهم وأبدانهم:

قدس الإسلام حياة البشرية وصان حرمة النفوس، وجعل الاعتداء عليها من أكبر الكبائر عند الله، ذلك أن النوع الإنساني كله أسرة واحدة، والعدوان على نفس من أنفسه هو في الحقيقة عدوان على الإنسانية كلها.

ولقد عنيت النصوص القرآنية والنبوية بالتحذير من قتل المسلم وقتاله، لأنها جاءت تشريعا وإرشادا للمسلمين في مجتمع إسلامي، وليس معنى هذا أن غير المسلم دمه حلال، فإن النفس البشرية معصومة الدم حرمها الله وصانها بحكم بشريتها، ما لم يكن غير المسلم محاربا للمسلمين، فعند ذلك قد أحل هو دم نفسه، أما إذا كان معاهدا أو ذميا من أهل الكتاب فإن دمه مصون لا يحل لمسلم الاعتداء

١- تفسير ابن كثير، ج ١ص٣١٠.

٢- تاريخ الرسل والملوك، الإمام الطبري، ج٣ ص٦٠٩، ط دار المعارف، الثالثة، د.ت.

عليه»[1].. وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما»[2].

٣- حرمة أعراضهم:

لقد صان الإسلام بتعاليمه الأعراض، ووصل برعايته لها إلى حد الحرمة، فقال عليه الصلاة والسلام حين خطب في جموع المسلمين فوق عرفات: «أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم.. حرام عليكم»[3].

وإذا كان هذا حرمة عرض المسلم فإن لعرض غير المسلم – أهل الذمة أو المعاهد – نفس الحرمة، فلا يجوز إيذاء الذمي أو خدش كرامته، أو هتك عرضه: «لأنهم في خفارتنا وذمتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فقد ضيع ذمة الله وذمة رسول الله ﷺ وذمة دين الإسلام»[4]..

ولعلنا نلمس هذا المعنى من فعل النبي ﷺ حين نهي المؤمنين من دخول بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، وكذا نهي عن ضرب نسائهم. فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا، فأقبل الى النبي ﷺ فقال: يا محمد، لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا، فغضب رسول الله ﷺ وقال: يا ابن عوف، اركب فرسك، ثم نادِ: إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة،

١- الحلال والحرام في الإسلام د. يوسف القرضاوي، ص ٣١١- ٣١٣، بتصرف يسير.

٢- أخرجه البخاري في كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم، ج٦ ص٣٢٨، حديث رقم: (٣١٦٦) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٣- جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، ج ٢ ص٨٨٦، حديث رقم: (١٤٧).

٤- الفروق: للإمام القرافي، ج٣ ص١٤، نقلا عن كتاب: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي د. يوسف القرضاوي ص ١٦، ط مكتبة وهبة، الثانية ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

فاجتمعوا ثم صلى بهم ثم قام فقال: أيحسن أحدكم متكئا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئا إلا ما في القرآن، ألا وإني والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء إنها لمثل القرآن أو أكثر، وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم».

٤- حرمة أموالهم:

لقد حرم الإسلام العدوان على المال، وجعل العدوان عليه من سرقة وإتلاف جريمة يعاقب عليها سواء كان صاحب المال مسلما أو غير مسلم.

وحين أقر الإسلام ملكية الفرد المشروعة للمال فإنه حمى هذه الملكية بتشريعه القانوني، وتوجيهه الأخلاقي قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٢] [٣].

وإذا كان هذا حرمة مال المسلم، فكذلك غير المسلم «لا حرج عليه في أن يجمع من المال ما يشاء ما دام يجمعه وينميه بالطرق المشروعة التي أحلها الله، ففي هذه الحالة لغير المسلم على الدولة الإسلامية حق الحماية لماله»[٤].

ولنا المثل الكامل من عمل الرسول ﷺ في المحافظة على مال أهل الكتاب فقد جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: «ولنجران وحاشيتها

١- سورة المائدة الآية:٣٨.

٢- سورة النساء الآية: ٢٩

٣- انظر: موسوعة الحقوق الإسلامية: سعيد يوسف أبو عزيز، ص ٨٣٠.

٤- من سماحة الإسلام: ص ٩٢، إصدار وزارة الأوقاف – القاهرة ١٤١٠هـ -١٩٨٩م.

جوار الله وذمة محمد ﷺ على أموالهم وأنفسهم وأرضيهم وثلتهم وغائبهم وشاهدهم وعبادتهم وبيعهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير»[١].

٥- الحماية من الظلم الداخلي:

لقد شدد النبي ﷺ الوصية بأهل الذمة وتوعد كل من يخالف ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: «ألا من ظلم معاهدا، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢].

ومن هنا فلا يجوز لمسلم أن يقيم ظلما على أحد من أهل الذمة أو ينقصه حقه أو أن يكلفه من العمل ما لا يطيق أو أن يأخذ شيئًا منه بغير طيب نفس منه، وإلا فالرسول ﷺ سيكون حجيجا له يوم القيامة.

٦- حمايتهم من العدوان الخارجي:

أما الحماية من العدوان الخارجي «فيجب على الدولة الإسلامية أن توفر هذه الحماية لهم، ولو كانوا منفردين ببلد؛ لأن أحكام الإسلام جرت عليه وتأبد عقدهم، فلزمها ذلك كما تلزمه للمسلمين»[٣].

ومن هنا فقد ذهب بعض الفقهاء إلى القول بأن «من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك، صونا لمن هو في ذمة الله تعالى، وذمة رسوله ﷺ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة»[٤].

وحين كانت القيادة الفقهية الراشدة آخذة مكانها الصحيح في سلم

١- الخراج: لأبى يوسف ص ١٥٩، تحقيق محمد إبراهيم البنا، ط دار الإصلاح – القاهرة، د.ت.

٢- أخرجه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، ج٣ ص١٧١ حديث (٣٠٥٢)، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٦٥٥) وقال: حديث صحيح.

٣- من سماحة الإسلام: ص ٦٩.

٤- الحلال والحرام، د. يوسف القرضاوي: ص ٣٢٥.

القيادة الإسلامية استمسكت بذلك حتى أصر شيخ الإسلام ابن تيمية على إطلاق من في أسر التتار من أهل الذمة مع إطلاق المسلمين فقال لقائد التتر «لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسارى من اليهود والنصارى منهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة»[1].

وبعد، فهذه هي أهم الحقوق التي منحها الإسلام لأهل الكتاب والتي لم يجعلها أماني مكذوبة يستقطب بها الجماهير، وإنما أقامها حقيقة واقعة ليعطي لكل من استظل برايته حظه من العدالة والاستقرار، فما أجدر هذا النظام الذي أقره رب العزة لإقامة مجتمع الإسلام، فهو مجتمع محدد المعالم يعرف كيف يتعامل كل فرد فيه مع الآخرين، ويعطيهم ما لهم من حقوق، ويطالبهم بما عليهم من واجبات، وبهذا التناسب والتناسق بين الحقوق والواجبات يشعر الجميع بأنهم يستمتعون بأنوار القرآن ووحي السماء بما يحمل من خير زاخر للإنسانية جمعاء»[2].

وفي مقابل هذه الحقوق التي منحها الإسلام لأهل الذمة، يثبت الإسلام عليهم واجبات نجملها فيما يلى:

أ- الالتزام بأداء التكاليف المالية المنصوص عليها كالجزية مثلا، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾[3].

ب- أن لا يذكروا كتاب الله بطعن فيه ولا تحريف له.

ج- ألا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

د- أن لا يذكروا دين الإسلام بذم له.

١- غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، د. يوسف القرضاوي: ص ١٠.

٢- منهج القرآن في تربية المجتمع د. عبد الفتاح عاشور: ص ٦٢٣.

٣- سورة التوبة الآية: ٢٩.

هـ- ألا يصيبوا مسلمة بزنا، ولا باسم نكاح.

و- ألا يفتنوا مسلما عن دينه، ولا يتعرضوا لماله ولا لدينه.

ي- أن لا يعينوا أهل الحرب[1].

تلك هي أهم الحقوق والواجبات التي منحها الإسلام لأهل الذمة وأوجبها عليهم.

المطلب الثاني: الآداب الاجتماعية.

إن جانب الآداب الاجتماعية من أعظم أسس النظام الاجتماعي أثرا في تماسك المجتمع وتعاونه ووحدته. «والمسلمون في عصور التخلف الأخيرة حين عنوا بالجانب الفردي الشخصي، عنوا بالآداب الفردية المتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين؛ وهو ما أخل بتماسك المجتمع، وأدى إلى ضعفه، وفسح المجال فيما بعد لدخول المذاهب الأجنبية وأصحابها بحجة الإصلاح والنهضة، والتحرر من التخلف، فتسللت إلى الجيل الذي لم يعرف الإسلام على حقيقته، وإنما عرفه في الصورة المنقوصة المشوهة التي وجد عليها المسلمون فظن أن هذه الصورة هي الإسلام فأعرض عنها، وعن الإسلام، وأقبل على هذه المذاهب يأخذها ويدعو إليها»[2].

ومهمة المجتمع المسلم اليوم أن يبث الآداب الاجتماعية، وأن يربي أبناءه عليها، وأن ينقي هذه الآداب مما دخل عليها من الآداب الغربية. ومن أهم هذه الآداب الاجتماعية:

١- أدب الاستئذان:

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ

١- الأحكام السلطانية: للماوردي ص١٤٥، ط الحلبى - الثالثة ١٣٩٣ هـ -١٩٧٣م.

٢- المجتمع الإسلامي المعاصر د. محمد المبارك، ص ٦٦ ، ٦٧.

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[1].

يقول صاحب الظلال - رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: «لقد جعل الله البيوت سكناً، يفيء إليها الناس، فتسكن أرواحهم وتطمئن نفوسهم ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم، ويلقون أعباء الحذر والحرص المرهقة للأعصاب.

والبيوت لا تكون كذلك إلا حين تكون حرماً آمناً لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم، وفي الوقت الذي يريدون وعلى الحالة التي يحبون أن يلقوا عليها الناس...

من أجل هذا وذاك أدب الله المسلمين بهذا الأدب العالي أدب الاستئذان على البيوت، والسلام على أهلها لإيناسهم وإزالة الوحشة من نفوسهم قبل الدخول»[2].

وهي آداب مع الاجانب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[3].

كما أنها آداب مع الأقارب كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ

١- سورة النور الآيتان: ٢٧، ٢٨.

٢- في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، ج٤ ص٢٥٠٧، ٢٥٠٨، وانظر: التربية الإسلامية في سورة النور، د. علي عبد الحليم محمود، ص١١٩، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، الأولى ١٤١٥هـ -١٩٩٤م.

٣- سورة النور الآية: ٢٨.

﴿بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض حيث «أمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذن خدمهم مما ملكت أيمانهم، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال: (الأول) من قبل صلاة الغداة، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ أي في وقت القيلولة، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحالة مع أهله ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ﴾ لأنه وقت نوم فيؤمر الخدم والأطفال ألا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال التي يخشى فيها أن يكون أهل البيت على حالة لا يرضون أن يداهمهم أحد عليها، أما في غير هذه الأوقات فلهم أن يدخلوا بدون استئذان، لأنهم من طبيعة أعمالهم وحياتهم أنهم طوافون على أهل البيت دخولاً وخروجاً، فإذا بلغ الأطفال الحلم وجب عليهم الاستئذان في جميع الأحوال[2].

وهكذا يتميز المجتمع الإسلامي بآداب خاصة بعيدة عن آداب الجاهلية، فلم يكن العرب يعرفون آداب الاستئذان في الجاهلية، بل كانوا يهجمون على البيوت هجوماً يحرم البيوت أمنها وسكينتها، فجاء الإسلام فنظم هذا السلوك الاجتماعي؛ وهو ما رد إلى البيوت حرمتها وجعلها سكناً يفي إليه الناس، ويجدون في ظلالها الأمن على عوراتهم وحرماتهم.

٢- آداب المجلس:

إن حياة المسلم كلها خاضعة لأوامر الله ومبادئ دينه تلك التي تشمل

١- سورة النور الآية: ٥٨.

٢- تفسير ابن كثير، ج٣ ص٣١٢، ٣١٣.

كل شؤون الحياة حتى جلوس الإنسان وآداب مجالسته لإخوانه، ومن أهم هذه الآداب:

أ- أن يجلس الداخل حيث انتهى به المجلس: فعن جابر بن سَمُرَة قال: كنا إذا أتينا النبي ﷺ جلس أحدنا حيث ينتهي[1]. وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه»[2].

ب- ألا يجلس بين اثنين إلا بإذنهما: وفي هذا الأدب يقول النبي ﷺ: «لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنيهما»[3] وإنما نهى النبي ﷺ عن ذلك لما فيه من الإيذاء لهما والتطفل عليهما، والإيذاء والتطفل ليسا من الخلق الرفيع في شيء.

ج- ألا يجلس في وسط الجالسين: وهذا أدب اجتماعي رفيع، لأن الإنسان إذا جلس في الوسط استدبر بعض الجالسين بظهره فيؤذيهم بذلك، فعن قتادة «أن رجلا قعد وسط الحلقة فقال حذيفة ملعون على لسان محمد ﷺ». أو «لعن الله على لسان محمد ﷺ من قعد وسط الحلقة»[4]، هذا إذا كان في المجلس سعة، وأما إذا كان في المجلس ضيق واضطر الناس أن يجلسوا في الوسط فلا إثم ولا حرج.

د- ألا يتناجى اثنان دون الثالث في مجلس واحد: والأصل في هذا

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في التحلق، ج٤ ص٢٥٨، حديث رقم: (٤٨٢٥).

٢- أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ج١١ ص٧٣، حديث رقم: (٦٢٦٩) (فتح الباري).

٣- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرجل يجلس بين الرجلين بغير إذنهما، ج٤ ص٢٦٢، حديث رقم: (٤٨٤٥)، والترمذي في سننه، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في كراهية الجلوس بين رجلين بغير إذنهما، ج٤ ص١٨٣، حديث رقم: (٢٩٠٠) وقال: هذا حديث حسن.

٤- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الاستئذان والآداب، باب ما جاء في كراهية القعود وسط الحلقة، ج ٤ ص١٨٣، حديث رقم: (٢٩٠١) وقال: حديث حسن صحيح.

الأدب قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: «يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه «لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُواْ»؛ أي ليسوءهم»[2].

هـ– الإفساح للداخل في المجلس: والأصل في هذا الأدب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[3].

يقول الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: «يقول تعالى مؤذناً عباده المؤمنين، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس وذلك أن الجزاء من جنس العمل، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾.

و– أن يذكروا اسم الله تعالى في مجلسهم: لقوله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة»[4]. وقال عليه الصلاة والسلام: «ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»[5].

١– سورة المجادلة الآية: ١٠.

٢– تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج ٤ ص٣٢٤.

٣– سورة المجادلة الآية: ١١.

٤– أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب إذا قام من مجلس ثم رجع، ج٤ ص٢٦٤، حديث رقم: (٤٨٥٥)، وقال النووي في الأذكار ص ٢٦٦ إسناده صحيح.

٥– أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله، ج٥ ص١٢٩، حديث رقم: (٣٤٤٠) وقال الترمذي حديث حسن.

ز- إذا قام أحد الجالسين من مجلسه ثم عاد إليه فهو أحق به: لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»[1].

ح- أن يذكروا كفارة المجلس عند القيام: وفي هذا الأدب يقول النبي ﷺ: «من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ثم قال قبل أن يقوم: «سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[2].

٣- أدب الجلوس في الطرقات:

لقد أعلى الإسلام شأن الطريق حتى جعل نظافته من شعب الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»[3].

وجعل النبي ﷺ إماطة الأذى عن الطريق في حديث آخر سبباً لمغفرة الله؛ فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له»[4].

بل إن النبي ﷺ جعل إماطة الأذى عن الطريق سبباً لدخول الجنة،

١- أخرجه مسلم، كتاب السلام، باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به، ج ٤ ص١٧١٥، حديث رقم: (٢١٧٩).

٢- أخرجه ابن حبان في صحيحه، ج١ ص٣٩٨، حديث رقم: (٥٩٣)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في كفارة المجلس، ج ٤ ص٢٦٥، حديث رقم: (٤٨٥٩)، وقال النووي في الأذكار ص٢٦٦: إسناده حسن صحيح.

٣- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب عدد شعب الإيمان، ج ١ ص٦٣، حديث رقم: (٣٥).

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ج٤ ص٢٠٢١، حديث رقم: (١٩١٤).

فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة»[1].

ومن هنا فإذا أراد المسلم الجلوس في الطرقات فإنه يراعى الآداب الآتية:

أ- غض البصر: قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

ب- كف الأذى عن المارة: فلا يحل للمسلم أن يؤذى أحداً من المارة بلسانه من قذف للمحصنات، وهتك للعورات، ومن شتم وسب ولعن، ومن غيبة ونميمة، وغمز ولمز، كما لا يجوز للمسلم أن يؤذي أحداً من المارة بيده من غصب لماله أو ضرب بيده... إلخ. وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[3].

ج- رد السلام: فيجب على المسلم أن يرد سلام كل من سلم عليه من المارة، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[4].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «السلام تطوع والرد فريضة وهو قول العلماء قاطبة، فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[5].

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ج ٤ ص٢٠٢١، حديث رقم: (١٩١٤).

٢- سورة النور الآية: ٣٠.

٣- سورة الأحزاب الآية: ٥٨.

٤- سورة النساء الآية: ٨٦.

٥- تفسير القرآن العظيم، ج ١ ص٥٣١.

د- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: والأصل في هذا الأدب عموم قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

وقد جمعت هذه الآداب في قول النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم: «إياكم والجلوس في الطرقات»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فإذا أبيتم إلا المجالس فأعطوا الطريق حقها»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[2].

١- سورة التوبة الآية: ٧١.

٢- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب من حق الجلوس على الطريق رد السلام، ج ٣ ص١٧٠٤، حديث رقم: (٢١٢١).



الباب الثاني

خصائص النظام الاجتماعي في ضوء الاسلام



الفصل الأول

خصيصة التقويم

«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

المبحث الأول

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفة المجتمع الإسلامي

من أعظم الخصائص التي يمتاز بها النظام الاجتماعي في الإسلام عن غيره من الأنظمة الوضعية، ما أوجبه الإسلام من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالله عز وجل ما أخرج الأمة الإسلامية في هذا الوجود لتعيش لنفسها فحسب بل لتكون وصية على البشرية كلها فهي أمة حركة ودعوة، ورسالة ومبدأ، تأمر بالمعروف وتعمل على تثبيته، وتنهى عن المنكر وتعمل على إزالته.

وإن المتدبر لكتاب الله تعالى يدرك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم المهام التي من أجلها أرسل الله الرسل قال تعالى واصفا نبيه محمدا ﷺ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1].

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهذه الآية: «هذه صفة الرسول ﷺ في الكتب المتقدمة وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر»[2].

وقد توارثت الأمة الإسلامية هذه الصفة وتلك المهمة، إذ من المعلوم أن الأمة الإسلامية مطالبة بالتأسي برسول الله ﷺ والتخلق بأخلاقه، وأصبحت من أخص خصائصها قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

١- سورة الأعراف الآية: ١٥٧.

٢- تفسير ابن كثير، ج ٢ ص٢٥٩.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] وما نالت هذه الأمة لقب الخيرية عن غيرها من الأمم إلا لقيامها بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

إن هذه الآية «تضع على كاهل الجماعة المسلمة في الأرض واجباً ثقيلاً بقدر ما تكرم هذه الجماعة وتدفع مقامها، ويفردها بمكان خاص لا تبلغ إليه جماعة أخرى، وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف أنها أخرجت لتكون طليعة ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة. والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية إنما ينبغي دائما أن تعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائما ما تعطيه، هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها، وتحتمه عليها غاية وجودها، واجبها أن تكون في الطليعة دائما، وفي مركز القيادة ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له، وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض أهلا له كذلك[3].

وقد جاءت السنة النبوية أيضا تقرر أصالة هذه المهمة وتلك الوظيفة في المجتمع المسلم وضرورة قيامه بواجبها. ومن ذلك قول النبي ﷺ: «إياكم والجلوس بالطرقات. قالوا: يا رسول الله: ما بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه،

١- سورة التوبة الآية: ٧١.

٢- سورة آل عمران الآية: ١١٠.

٣- في ظلال القرآن، ج ١ ص ٤٤٦، ٤٤٧.

قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1]. ففي هذا الحديث يجعل الرسول ﷺ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حقا واجبا على المسلمين إذا دعتهم الضرورة للجلوس في الطرقات.

ومن ذلك أيضا قوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر»[2]. ففي هذا الحديث ينفيالنبي ﷺ كمال الإيمان عمن لم يقم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

١- أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الجلوس في الطرقات، ج ٢ ص ٥٥٥، ٥٥٦

٢- أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الصبيان، ج ٣ ص ٢١٤، حديث رقم: (١٩٨٦) وقال الترمذي: هذا حديث غريب.

المبحث الثاني

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وارتباطهما بصلاح المجتمع وفساده

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية عظمى في بناء المجتمع الصالح إذ «لو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد»[1].

وعلى هذا، فإن غياب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عن واقع المجتمع الإسلامي يفقده الضمانة الأساسية لبقائه، ويسلبه خيريته التي منحها الله إياه، ويلحقه لعنة محققة، قال تعالى منكراً على بني إسرائيل لتفريطهم في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[2].

ومما يجدر ذكره هنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتنافى مع قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾[3]، ولا مع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[4].

فعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه

١- إحياء علوم الدين: ج ٢ ص٤٥٥.

٢- سورة المائدة الآيتان: ٧٨، ٧٩ .

٣- سورة فاطر الآية: ١٨.

٤- سورة المائدة الآية: ١٠٥.

الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[1]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم الله بعقاب منه»[2].

وهكذا يصحح الخليفة الأول ﷺ ما ترامى إلى وهم الناس في زمانه من هذه الآية الكريمة ونحن اليوم أحوج إلى هذا التصحيح؛ لأن «القيام بتكاليف التغيير للمنكر قد صار أشق، فما أيسر ما يلجأ الضعاف إلى تأويل هذه الآية على النحو الذي يعفيهم من تعب الجهاد ومشاقة، ويريحهم من عنت الجهاد وبلائه. وكلا والله إن هذا الدين لا يقوم إلا بجهد وجهاد، ولا يصلح إلا بعمل وكفاح، ولا بد لهذا الدين من أهل يبذلون جهدهم لرد الناس إليه، ولإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده... وبعد ذلك -لا قبله- تسقط التبعة عن الذين آمنوا وينال الضالون جزاءهم من الله حين يرجع هؤلاء وهؤلاء إليه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[3] [4].

ومن هنا يتبين أن المجتمع الذي يتناصح الناس فيه بالخير ويتناهون عن المنكر هو «المجتمع المترابط المتساند القوي، الذي يتقدم إلى الأمام، وينتقل من خير إلى خير بحكم تضافر الطاقة وتوجهها إلى الإصلاح، والمجتمع الذي يأتي المنكر فيه كل إنسان على مزاجه ويتركه الآخرون لما يفعل هو المجتمع المفكك المنحل، الذي يمضى إلى الوراء حتماً وينتقل من ضعف إلى ضعف بحكم تبدد الطاقة وانصرافها إلى الشر»[5].

١- سورة المائدة الآية: ١٠٥.

٢- أخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر، ج ٣ص٣١٦، حديث رقم: (٢٢٥٧).

٣- سورة المائدة الآية: ١٠٥

٤- في ظلال القرآن: ج ٢ ص٩٩٢، ٩٩٣.

٥- قبسات من الرسول: محمد قطب، ص٥٧.

المبحث الثالث

أثر القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على المجتمع

للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آثار جليلة تعود على المجتمع نذكر منها ما يلي:

١- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحفظ المجتمع من الهلاك.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو صمام الأمن والأمان الذي يحفظ المجتمع من الوقوع في الهلاك قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾[1].

يقول صاحب تفسير المنار في تفسير هذه الآية: «جاءت هذه الآية بعد بيان إهلاك الأمم بظلمهم وإفسادهم في الأرض للإعلام بأنهم لو كان فيهم جماعات وأحزاب أولو بقية من الأحلام والفضائل والقوة في الحق ينهونهم عن ذلك لما فشا فيهم وأفسدهم ولما هلكوا، فإن الصالحين في الأرض هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من الهلاك ما داموا يطاعون فيها بحسب سنة الله تعالى كما أن الأطباء هم الذين يحفظ الله بهم الأمم من فشو الأمراض والأوبئة فيها، ما دامت الجماهير تطيعهم. وحفظ الله للأمم بهؤلاء الناس لا يكون بذواتهم، ولا ببركة أجسامهم، ولا بعباداتهم الشخصية القاصرة نفعاً عليهم، بل بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وطاعة الأمة لهم»[2].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ

١- سورة هود الآية: ١١٦.

٢- انظر: تفسير المنار: محمد رشيد رضا، ج ١٢ ص١٥٧ وما بعدها بتصرف.

﴿... مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾[1].

فهذه الآية الكريمة «تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمم التي يقع فيها الفساد – في أي صورة من الصور – فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير أما الأمم التي يظلم فيها الظالمون ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحق عليها، إما بهلاك الاستئصال، وإما بهلاك الانحلال والاختلال. وهكذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صورة... إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع»[2].

٢-القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب النصر على الأعداء: ويظهر هذا الأثر واضحاً في قول الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾[3].

يقول سيد قطب في ظلاله عن هذه الآية: «إن وعد الله المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره... فمن هم هؤلاء الذين ينصرون الله فيستحقون نصر الله القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فحققنا

١- سورة الأعراف الآيتان: ١٦٤، ١٦٥.

٢- في ظلال القرآن، ج ٤ ص١٩٣٣.

٣- سورة الحج الآية: ٤٠ – ٤١.

لهم النصر ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فعبدوا الله ووثقوا صلتهم به ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فأدوا حق المال وانتصروا على شح النفس ﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فدعوا إلى الخير والصلاح ودفعوا إليه الناس ﴿وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ فقاوموا الشر والفساد وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقي على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه. هؤلاء هم الذين ينصرون الله إذ ينصرون منهجه الذي أراد للناس في الحياة، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين، فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه... والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً والنصر هزيمة عندما تختل القوائم أو تهمل التكاليف[1].

وهذا الأمر هو ما فقهه الأعداء من خلال نظرتهم الثاقبة في المجتمع الأول من صحابة رسول الله ﷺ، فقد رأوا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الأسباب التي تحقق النصر للمسلمين وتلحق بهم الهزيمة. فعن أبى إسحاق قال: «كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يثبت لهم العدو فواق[2] ناقة عند اللقاء، فقال هرقل وهو على إنطاكية لما قدمت منهزمة الروم: ويلكم أخبروني عن هؤلاء الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مثلكم؟ قالوا: بلى. فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافاً في كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار، ويوفون بالعهد، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر...»[3].

١- في ظلال القرآن: ج ٤ ص٢٤٢٧ – ٢٤٢٨.

٢- فواق الناقة –بضم الفاء وفتحها– ما بين الحلبتين من الوقت: المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ص٤٨٥.

٣- البداية والنهاية: العلامة ابن كثير: ج ٤ ص١٥، ١٦، ط دار الريان، الأولى ١٤٠٨هـ –١٩٨٨م.

٣-القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب تكفير المعاصي والسيئات:

لما كان الإنسان مفطوراً على الضعف والفقر، وغير ذلك من صفات النقص كالعجلة والجزع والهلع... لما كان كذلك كانت رحمة الله تعالى بهذا المخلوق المسكين -الإنسان- التي لولاها لكان من الخاسرين فجعل الأعمال الصالحة -من غير التوبة والاستغفار- وعلى رأسها القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً صالحاً ومقبولاً يغفر الله به الذنوب ويمحو به السيئات..

فعن حذيفة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[١][٢].

٤- كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له أثره التشريعي في حراسة جميع الشئون العامة والخاصة في المجتمع؛ إذ «هو الأصل الذي اكتسبت منه كثير من التنظيمات والتشريعات الصفة القانونية، واعتمدت عليه في إنشاء أنواع المراقبات والتفاتيش المختلفة على الأسعار والغش والمرور والمباني والنواحي الصحية أو الشئون المالية والإدارية والآداب»[٣].

وهكذا يبرز أثر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع المسلم، فهو يحول دون هلاك المجتمع ودماره، كما يمكّن المجتمع ويحقق له

١- أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ج ٦ ص٧٣٤، حديث رقم: (٣٥٨٦) (فتح الباري بشرح صحيح البخاري).

٢- انظر: أصول الدعوة في ضوء الكتاب والسنة، د. بدير محمد بدير، ص٢٥ وما بعدها.

٣- انظر: البحوث والدراسات د. يوسف القرضاوي وآخرين ١٢/٣، ١٣ بتصرف. نقلاً من توجيهات نبوية على الطريق د. السيد محمد نوح، ج ٢ ص٢٠٧، ٢٠٨.

الأزدهار والاستقرار، ويصبغ حياة المجتمع بصبغة أخلاقية كريمة، وما أسعد الحياة في ظل مجتمع يقدِّر القيم والمثل والأخلاق والآداب ويطبقها بين أفراده.

المبحث الرابع

عاقبة التقصير في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرها على المجتمع

إذا كان للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تلك الآثار البالغة التي سبق الإشارة إليها، فإن لإهمال هذه الفريضة خطره العظيم وشره المستطير الذي ينعكس على المجتمع. ويمكن تحديد أثر إهمال هذه الفريضة في النقاط التالية:

١-حلول الفتنة والعقاب الجماعي:

لقد جرت سنة الله تعالى أن المجتمع الذي يشيع فيه المنكر، وينتشر فيه الفساد، ويسكت الأفراد عن الإنكار والتغيير فإن عقاب الله يوشك أن يعمهم جميعاً الصالح والطالح في ذلك سواء؛ لأن الساكت عن الشر شريك لفاعله.. قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾[1].

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة -أي اختبار ومحنة- يعم بها المسيء وغيره لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب بل يعمها لم تدفع ولم ترفع»[2].

ولعل ما يؤكد هذه الحقيقة قول النبي ﷺ حين شبه المجتمع كله بسفينة يركب على ظهرها البر والفاجر، فإن ترك العقلاء الصالحون العصاة المنحرفين يعبثون في السفينة ويخرقونها فإن السفينة ستغرق ولن ينجو أحد.. يقول النبي ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والمدهن فيها كمثل قوم استهموا على سفينة في البحر فأصاب بعضهم أعلاها،

١- سورة الأنفال الآية: ٢٥.

٢- تفسير القرآن العظيم: ابن كثير، ج ٢ ص٣٠٦.

وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها يصعدون فيستقون الماء فيصيبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا، فقال الذين في أسفلها فإنا ننقبها في أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً»[1].

ففي هذا الحديث دليل على «تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة –للجماعة كلها– بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالفتنة إذا حلت هلك الكل وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغَيَّر وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجران تلك البلدة والهرب منها»[2].

٢-إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدى إلى حلول لعنة اللّه على المجتمع:

إن تخاذل المجتمع عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يصيب المجتمع بلعنة محققة من اللّه تعالى، واللعنة التي استحقها المجتمع الإسرائيلي خير شاهد على ذلك، فقد بين اللّه تعالى أن السبب في ذلك هو تخاذلهم عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[3].

١- سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، ج ٣ ص٣١٨، حديث رقم: (٢٢٦٤) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

٢- تفسير القرطبي، ج ٤ ص٢٨٢٨.

٣- سورة المائدة الآيتان: ٧٨، ٧٩.

يقول ابن كثير – رحمه الله – في تفسيره لهاتين الآيتين: «يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، وبسبب أنه كان لا ينهى أحد منهم عن ارتكاب المآثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه فقال: لبئس ما كانوا يفعلون»[1].

وليس المجتمع الإسلامي بدعاً من المجتمعات الأخرى إذا هو قصر في القيام بهذه الفريضة.

وصدق النبي ﷺ حين يقسم ويؤكد هذه الحقيقة بأبلغ توكيد فيقول: «والذي نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على أيدى المسيء، ولتأطرنه على الحق أطرًا أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعنهم»[2].

٣-إهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمع:

ولا شك أن الفساد إذا انتشر في المجتمع فإن داءه يصيب كل فرد فيه؛ لأن المنكرات كالجراثيم التي تؤثر في الجسد قطعاً، فإذا أحسن الفرد تربية ابنه تربية صحيحة فإنه سيتأثر في غده ببقية أفراد المجتمع لدى مخالطته لهم سواء أتم ذلك الاختلاط في المدرسة أم عن طريق الجيران أم عن طريق الأماكن المختلفة الأخرى، كما أن انتشار المعصية يؤدي إلى أن يرى الناس المعروف منكراً والمنكر معروفاً، فحين يترك المعروف ولم يأمر به أكثر الناس وينتشر المنكر ويأمر به أغلب

١- تفسير ابن كثير، ج ٢ ص٨٤، بتصرف يسير.

٢- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باب وجوب إنكار المنكر، ج ٧ ص٢٦٩ وعزاه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

الناس فإن سيل الفساد يجرف البر والفاجر والصالح والطالح»[1].

ولعل واقع المجتمعات المعاصرة خير شاهد على أن انتشار الفساد والمنكرات في تلك المجتمعات لهو نتيجة طبيعية لتنازل هذه المجتمعات عن القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء شكل عفوي أو عن طريق مؤسسات الدولة والمجتمع المدني.

من هنا يتبين أن التهاون في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يؤدي إلى انتشار الفاحشة في المجتمع حيث يجد أهل الباطل في باطلهم فسحة لاقتراف المنكرات، فلا أحد ينكر عليهم ولا أحد يؤاخذهم بما يفعلون، ومن ثم يقدم العاصي على معصية بكل جرأة ووقاحة على مرأى ومسمع من الجميع، ومن ثم يتمكن الباطل وتتحول الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد بدعوى الحرية الفردية وغيرها من الاعتبارات.

٤-إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من دواعي الهزيمة والخذلان وتمكن الأعداء والحرمان من استجابة الدعوة: وفي هذا يقول النبي ﷺ:«يا أيها الناس، إن الله يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم»[2].

ففي هذا الحديث يبين النبي ﷺ أن أحد الأمرين واقع إما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإما الخذلان وعدم النصرة ثم عدم استجابة الدعاء بحيث لا يجتمعان ولا يرتفعان.

ولا شك أن هذه عقوبة عظيمة من العقوبات المترتبة على التقصير

١- مجتمعنا المعاصر د. عبد الله المشوخى، ص١٨٥.

٢- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ج ٧ ص٢٦٦، وعزاه إلى أحمد والبزار، وقال فيه عاصم بن عمر أحد المجاهيل.

في أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي خذلان المسلمين وعدم استجابة دعائهم... فأي خزي أخزى من أن يجافي الاجادة فلا يستجيب لهم دعوة، ولا يعطيهم سؤلهم، ولا ينصرهم على أعدائهم[1].

ولعلنا ندرك بعد هذا أن الذل والهوان والخذلان الذي تحياه المجتمعات الإسلامية اليوم ما هو إلا ترجمة صادقة لتخليها عن القيامة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل أدرك المسلمون ذلك؟.

كانت هذه أهم الآثار التي ترتبت على غياب فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتي انعكست بصورة واضحة على المجتمع، ومن يتأمل في واقع المجتمع اليوم يرى صدق هذه الآثار وما آلت إليه المجتمعات من فساد.

١- انظر: أصول الدعوة في ضوء الكتاب والسنة، د. بدير محمد بدير ص٣٩، ٤٠.



الفصل الثاني

خصوصية الحرية

المبحث الأول

منهج الإسلام في تحقيق التحرير الداخلي «التحرير الوجداني»

إن الحرية هي أثمن ما يمتلكه الإنسان في هذه الحياة، ولذا فإن الإنسان في مختلف الأزمنة التي مرت به كان لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار حتى ينال حريته.. ومن هنا كفل الإسلام الحرية لجميع المواطنين، وجعلها جزءاً من النظام الإلهي الذي أسست عليه حياة البشر، وأصبح ملازما لهذه الحياة في مختلف مراحلها.

إن تحقيق الحرية في المجتمع يتطلب وجود اقتناع نفسي ووجداني بتلك الحرية، وبحاجة الفرد والمجتمع إليها، وهذا الاقتناع لا يتحقق إلا في ظل حرية نفسية خالية من كل ما من شأنه أن يجهض حاسة النضج في الفطرة الإنسانية.. لهذا كان منهج الإسلام وهو ينشئ مجتمعاً حراً وفق تعاليمه الربانية وهديه الإلهي أن بدأ بتحرير الإنسان من الداخل، ولقد كان منهج الإسلام في ذلك مميزاً وفريداً حيث وضع من القواعد والمبادئ ما يضمن تحقيق هذا التحرير الداخلي.

ويتمثل هذا المنهج فيما يلي:

أ-تحرير الوجدان من عبادة غير الله.

لقد عني الإسلام بتحرير الوجدان البشري من العبودية لكل ما في الحياة، وجعل العبودية لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

فهذه الآية تشير إلى أن: «النظام الإسلامي وحده هو الذي يحرر الإنسان من ربقة العبودية للعبيد، فيصبح حراً يتلقى التصورات

١- سورة آل عمران الآية: ٦٤.

والنظم والمناهج والشرائع والقوانين والقيم والموازين من اللّه وحده، شأنه في هذا شأن كل إنسان آخر مثله، فهو وكل إنسان آخر على سواء كلهم يقفون في مستوى واحد، ويتطلعون إلى سيد واحد، ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللّه»[1].

ب-التحرير من الخوف على الحياة والرزق:

إن الشعور بالخوف على الحياة والرزق شعور لم يرضه الإسلام لأتباعه ومعتنقيه لأنه «يغض من إحساس الفرد بنفسه وقد يدعوه إلى قبول الذل وإلى التنازل عن حريته وكرامته، ولهذا عني الإسلام عناية خاصة بأن يقاوم الإنسان الشعور بالخوف على الحياة وعلى الرزق، فالحياة بيد اللّه، وليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة، كذلك ليس له أن يخدشها خدشاً خفيفاً بضرر خفيف»[2].

أما قضية الرزق فقد حرر الإسلام الناس من المذلة للقوت، حينما حرر مقدرات حياتهم وبيّن أن الذي يضمن لهم أرزاقهم هو اللّه تعالى، ومن ثم لا يجوز لمسلم أن يخاف من أحد يهدده بقطع رزقه، يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾[3]. فهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه «لا يجوز أن يُذِلَّ الاسترزاق رقاب الناس فإنما رزقهم بيد اللّه، وبيد اللّه وحده ولن يملك أحد من عباده الضعفاء أن يقطع رزق إنسان، ولا أن يضيق عليه في الرزق شيئاً، وهذا لا ينفي الأسباب والعمل، ولكنه يقوي القلب ويشجع الضمير»[4].

وإلى هذا المعنى تشير الآيات الكريمة ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ

١- في ظلال القرآن، ج ١ ص٤٠٧.

٢- المصدر السابق: ص٣٦.

٣- سورة العنكبوت الآية: ٦٠.

٤- العدالة الاجتماعية: للشهيد سيد قطب، ص٣٧.

مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[2]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾[3].

ج-التحرير من عبودية الأعراف والمصطلحات الفاسدة:

حرر الإسلام الإنسان من عبودية الأعراف الخاطئة، والقيم الاجتماعية الزائفة؛ قيم المال والجاه والحسب والنسب، قيم الآباء والأجداد وموروثات الجاهلية، حتى لا يستشعر انقياداً وانصياعاً لأى عرف من تلك الأعراف، يقول تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[4].

يقول الشهيد سيد قطب – رحمه الله – تعليقاً على هذه الآيات: «فليكونوا أكثر أموالاً وأكثر أولاداً فما لهذه من قيمة تجعل لهم ميزة أو استعلاء ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فالإيمان وهو قيمة مكنونة في الضمير، والعمل الصالح وهو قيمة بارزة في الحياة هما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار، والإسلام لا يغض مع هذا من قيمة المال ولا من قيمة الأبناء ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5]..

١– سورة العنكبوت الآية: ٦٢.

٢– سورة فاطر الآية: ٣.

٣– سورة الأنعام الآية: ١٥١.

٤– سورة سبأ الآيات: ٣٥ – ٣٧.

٥– سورة الكهف الآية: ٤٦.

زينة ولكنهما ليسا قيمة من قيمها التي ترفع وتخفض: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1][2].

ويضرب القرآن الكريم مثلاً لاعتزاز المسلم بإيمانه، واستهانته بتلك القيم الفاسدة وتحرره منها كما هو واضح في قصة قارون: حيث يقول المؤمنون العالمون لقارون كما حكى القرآن: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[3].

د - التحرير من الشهوات والأهواء.

إن الإسلام في صميمه ليس دعوة إلى ترك الطيبات من الرزق، ولا لبس المرقع من الثياب، والبعد عن الزينة والمتاع ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[4]، وإنما هو «دعوة إلى التحرر والانطلاق من ضعف الشهوات والغرائز ودعوة إلى شكر النعمة واستعمالها فيما يعود على الإنسان ومجتمعه وعلى الإنسانية بالخير، ودعوة إلى إصلاح الناس ورحمتهم بالنعم، لا إلى الإفساد واستعبادهم بها»[5].. قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

١- سورة الكهف الآية: ٤٦.

٢- العدالة الاجتماعية: سيد قطب ص٣٨، ٣٩.

٣- سورة القصص الآية: ٧٧.

٤- سورة الأعراف الآية: ٣٢.

٥- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، د. توفيق الواعي: ص٥٣٩.

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[١]..

ففي هذه الآية الكريمة «يجمع الله جميع اللذائذ والمطامع والرغائب ونقط الضعف في نفس الإنسان ليضعها في كفة ويضع في الكفة الأخرى حب الله ورسوله وحب الجهاد في سبيله لتكون التضحية كاملة والتخلص من أوهاق الشهوات كاملاً، فالنفس التي تتحرر من هذا كله هي النفس التي يطلبها الإسلام ويدعو إلى تكريمها لتستعلي على الضراوة المذلة، وتملك قياد أمرها وتنزع إلى أكبر وأبعد مدى من الرغبات الوقتية الصغيرة»[٢].

وبينما نجد هذا المنهاج القويم الذي خطه الإسلام لتحقيق التحرير الوجداني للإنسان، تذهب المسيحية المحرفة وكذلك البوذية المصطنعة إلى أن التحرر الوجداني إنما يتحقق «في ترك لذائذ الحياة وشهواتها، واحتقار الحياة الدنيا والتوجه إلى ملكوت الرب في السماء، وهذا يخالف الطبيعة البشرية حيث إن دوافع الحياة لا تقهر ولا تقتل، وإنما تنظم وتعدل إلى الخير للإنسان، فالله سبحانه وتعالى لم يخلق تلك الدوافع عبثاً، ولم يخلقها ليعطلها ويستقذرها فهذه النظرة أخذت جانباً وتركت آخر، وضحت بجانب لحساب جانب آخر..

وتذهب الشيوعية إلى التحرر الاقتصادي، وتظنه وحده الكفيل بذلك التحرير الوجداني، ونظرتها في ذلك أن الضغط الاقتصادي على الفرد هو الذي يجعله يطأطئ رأسه للقوانين الجائرة التي تحرمه من العدالة والمساواة، وهذا يكون صواباً إذا صاحبه تحرر للضمير والوجدان الداخلي للإنسان ولبَّى جانب الروح والنفس»[٣].

١- سورة التوبة الآية: ٢٤.

٢- العدالة الاجتماعية: سيد قطب، ص٤٢.

٣- الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص٥٥٨.

وذهبت المدنية الغربية الحديثة إلى أن التحرير الوجداني يتحقق في ظل التحرر من القيم والأهداف العليا، وانطلاق الغرائز وإشباع الجسد. فراحت تنسف القيم والأخلاق نسفاً بدعوى الحرية، وقد ظهر هذا واضحاً في الدعوة لتحرير المرأة، ومفاهيم الحرية الفردية والنوع.

المبحث الثاني

منهج الإسلام في تحقيق التحرير الخارجي «تحرير الرقيق»

لقد حاولت قوى البشر عبر التاريخ أن تحصل على نصيبها الأوفى من الحرية وتناثرت في سبيلها أشلاء الضحايا، فما قطعت في هذا الطريق غير خطوات، وما نالت إلا الفتات المتناثر من أنياب الطغاة المستبدين. فلما جاء الإسلام بدد هذا الظلام، ومنح المجتمعات الإنسانية نصيبها في الحرية كاملاً غير منقوص، وذلك بما سنه من نظم وتشريعات.

وقد سلك الإسلام في منهجه لتحرير الرقيق مرحلتين:

الأولى: تتمثل في التحرير الروحي للرقيق وذلك برده إلى الإنسانية، ومعاملته على أنه بشر كريم لا شيء كريه. وهذا هو ما أقره الإسلام حين أمر السادة أن يحسنوا معاملتهم للرقيق معاملة لا تبعد كثيراً عن معاملة الوالدين والأقربين، يقول تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾[1].

كما قرر الإسلام أن العلاقة بين السادة والعبيد ليست علاقة الاستعلاء والاستعباد، إنما هي علاقة الأخوة التي تقتضى مساواة العبيد بالسادة في المطعم والملبس... إلخ. يقول النبي ﷺ: «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما لا يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه»[2].

١- سورة النساء الآية: ٣٦.

٢- أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس، ج ٣ ص١٢٨٣، حديث رقم: (١٦٦١).

كما قرر الإسلام أنه لا فضل لسيد على عبد لمجرد أن هذا سيد وهذا عبد، وإنما المفاضلة بين البشر بقربهم من الله وتقواهم له.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1].

وهكذا لم يعد الرقيق في ظل الإسلام شيئاً وإنما صار بشراً له روح كروح السادة، «وأصبح كائناً إنسانياً له كرامة يحميها القانون ولا يجوز الاعتداء عليها بالقول ولا بالفعل، فأما القول فقد نهى الرسول ﷺ السادة عن تذكير أرقائهم بأنهم أرقاء، وأمرهم أن يخالطوهم بما يشعرهم بمودة الأهل وينفي عنهم صفة العبودية وقال لهم في معرض هذا التوجيه: لا يقل أحدكم لعبده عبدي، ولكن ليقل فتاي، ولا يقل العبد لسيده ربي ولكن ليقل سيدي»[2]..

وأما الاعتداء الجسدي فعقوبته الصريحة المعاملة بالمثل «من قتل عبداً قتلناه، ومن جدع عبداً جدعناه»[3]، وهو مبدأ صريح الدلالة على المساواة الإنسانية بين الرقيق والسادة، وصريح في بيان الضمانات التي بها حياة هذه الطائفة من البشر –التي لا يخرجها وضعها العارض عن صفتها البشرية الأصيلة – وهي ضمانات كاملة ووافية»[4]. وهكذا وضع الإسلام من المناهج العملية والوصايا الإسلامية في حسن معاملة الرقيق ما تفخر به الأجيال المسلمة على مدى التاريخ والأيام.

١- سورة الحجرات الآية: ١٣.

٢- أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج ٢ ص٤٤٤ وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٧٥٨) وقال: صحيح.

٣- أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج ٥ ص١٠، وأبو داود في سننه، كتاب الديات، باب من قتل عبده أو مثل به، ج ٢ ص٤٨٤، وذكره الألباني في ضعيف الجامع برقم (٥٧٤٩) وقال: ضعيف.

٤- شبهات حول الإسلام: الأستاذ محمد قطب، ص ٤٢. وانظر: الإسلام والرق د. محمد البهي: ص ٢٣، ٢٤، ط دار التراث العربي، الأولى ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩ م.

وفضلاً عما وضعه الإسلام من مبادئ ترفع العبد إلى مستوى سيده، فإن الإسلام لم يكتفِ بهذا، لأن قاعدته الأساسية هي التحرير الكامل لكل البشر، ومن هنا تأتي المرحلة الثانية وهي: مرحلة التحرير الواقعي والعملي.

وقد سلك الإسلام في منهجه لتحقيق هذه المرحلة مسلكين:

أحدهما: تجفيف الروافد المتعددة التي كانت تمد الرق وتغذيه وتكفل بقاءه، وقد كانت روافد الرق في العصر الذي ظهر فيه الإسلام كثيرة ومتنوعة يرجع أهمها إلى ثمانية روافد:

١-انتماء الفرد إلى شعب معين أو طبقة معينة كان يجعله رقيقاً في نظر شعوب كثيرة كالهنود والرومان واليونان.

٢-الحرب بجميع أنواعها، فكان الأسير في حرب أهلية أو خارجية لا يخرج مصيره عن القتل أو الاسترقاق.

٣-القرصنة والخطف والسبي، فكان ضحايا هذه الاعتداءات يفرض عليهم الرق.

٤-ارتكاب بعض الجرائم الخطيرة كالقتل والسرقة والزنا، فكان يحكم على مرتكب واحدة منها بالرق لصالح الدولة أو لصالح المجني عليه.

٥-عجز المدين عن دفع دَيْنِهِ في الموعد المحدد لدفعه كانت عقوبته استرقاق المدين لصالح دائنه.

٦-تنازل الشخص عن حريته لقاء ثمن معين.

٧-سلطة الوالد على أولاده كانت تبيح له أن يبيع أحدهم في حالة العوز والعسرة.

٨-تناسل الرقيق، فكان ولد الأمة يولد رقيقاً ولو كان والده حراً ولو كان سيد الأمة نفسه[١].

فلما جاء الإسلام حرم هذه الروافد الثمانية ولم يبق منها سوى حالتين لصورة مقيدة تدعو الضرورة إليها وهما: رق الوراثة، ورق الحرب الإسلامية المشروعة[٢].

وقد قيد الرافد الأول – رق الوراثة – فاستثنى منه أولاد الجواري من مواليهم فقرر أن من تأتي به الجارية من سيدها يولد حراً، وهذا القيد يبين أن الإسلام قد وضع نظاماً لينضب معين هذا الرافد في أمد غير طويل؛ لأن الأغنياء كثيراً ما كانوا يقتنون الجواري لمتعهم الخاصة.

وقيد الرافد الثاني فاستثنى منه الحرب بين طائفتين من المسلمين، ولم يبح استرقاق الأعداء إلا إذا بدأوا بالعدوان، أو نكثوا عهودهم مع المسلمين، وعملوا على الطعن في الإسلام والكيد له.

وإلى هذا يشير القرآن الكريم ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾[٤] وحتى مع توافر هذه الشروط فإن الإسلام يبيح للإمام أن يمن على الأسرى بدون مقابل أو يطلق سراحهم نظير فدية أو عمل يؤدونه، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[٥].

١- انظر: حقوق الإنسان في الإسلام د. علي عبد الواحد: ص ٢٠٢، ٢٠٣.

٢- رق الوراثة: هو الذي يفرض على من تلده الجارية، ورق الحرب هو: الذي يفرض على الأسرى (حقوق الإنسان في الإسلام د. على عبد الواحد ص٢٠٤).

٣- سورة البقرة الآية ١٩٠.

٤- سورة التوبة الآية: ١٢.

٥- سورة محمد الآية: ٤.

ومن هنا يتبين أن الإسلام قد سلك نظاماً حيال روافد الرق يكفل نضوب معينها في زمن قصير، وهذه مفخرة من مفاخر الإسلام، وأما المسلك الآخر فيتمثل في توسيع المنافذ التي تؤدي إلى العتق والتحرر.. ومن أهم الأبواب التي فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ما يلي:

١-العتق بالترغيب:

شجع الإسلام السادة على تحرير الأرقاء ورغبهم في العتق ترغيباً كبيراً مبيناً أن تحرير الأرقاء من الأمور التي توصل الإنسان إلى مرضاة الله، والفوز بالجنة والنجاة من النار، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾[١] ويقول الرسول ﷺ: «من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه»[٢].

٢-خزانة الدولة:

حيث خصص الإسلام جزءاً من مالية الدولة كل عام لافتداء الأسرى وتحرير العبيد، ومما يذكره التاريخ الإسلامي في هذا المجال «أن خازن بيت المال في عصور الخلفاء كان يشتري من سوق النخاسين عبيداً ويحررهم كلما زاد بيت المال عن كفالة الفقراء والمحتاجين.

قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فجمعتها، ثم طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد فقيراً ولم نجد من يأخذها منا، فقد أغنى عمر الناس فاشتريت بهم عبيداً

١- سورة البلد الآية: ١١ – ١٣.

٢- أخرجه الإمام البخاري في كتاب كفارات الأيمان، باب صاع المدينة ومد النبي ﷺ وبركته، ج ١١ ص٧٠٩، حديث رقم: (٦٧١٥) (فتح الباري).

فأعتقتهم.

هذا بالإضافة إلى معاونة بيت مال الزكاة للأرقاء المكاتبين لأداء ثمن التحرير إذا عجزوا بكسبهم الخاص عن أدائه»[1].

٣-قانون الكفارات:

وهو من أعظم الوسائل التي شرعها الإسلام لتحرير الرقيق، حيث يجعل هذا القانون عتق الرقاب فريضة لمحو كثير من الخطايا التي يفعلها الإنسان كالحنث في اليمين والقتل الخطأ والظهار قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾[2]، وقال تعالى في كفارة اليمين: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]، وقال تعالى في كفارة الظهار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾[4].

٥- وبالإضافة إلى ما سبق، فقد حرص الإسلام على أن يحقق للرقيق بعد خروجه من الرق حياة تتوافر له فيها جميع ضمانات الحرية والكرامة، «فقرر أنه بعد عتقه يصبح فرداً في أسرة سيده السابق

١- نظام الرق في الإسلام د. عبد الله ناصح علوان ص٥٩، ٦٠ ط دار السلام الرابعة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

٢- سورة النساء الآية: ٩٢.

٣- سورة المائدة الآية:٨٩.

٤- سورة المجادلة الآية: ٣.

مشتركاً مع أفرادها ومساوياً لهم في كثير من الحقوق والواجبات، حتى لقد كان يجب عليهم أن يدفعوا عنه الجزية إذا ارتكب جناية توجب ذلك، كما كانوا يفعلون حيال أي فرد آخر من أفرادهم»[1].

وكان هدف الإسلام من هذه الضمانة «أن يكمل نعمة الحرية على العبد بعد تحريره فيجعله عضواً في الأسرة التي كانت تملكه من قبل، وأن يجعل له من هذه الأسرة درعاً تحمي حريته، وتدرأ عنه ما عسى أن يوجه إليه من عدوان»[2].

١- حقوق الإنسان في الإسلام د. على عبد الواحد وافى ص٢١٩.

٢- حقوق الإنسان في الإسلام المرجع السابق ص٢١٩.

المبحث الثالث
ميادين الحرية في الإسلام

إن الحرية التي منحها الإسلام لمجتمعه عميقة الجذور باسقة الأغصان ممتدة الفروع، شملت الحريات بكل أشكالها وأنواعها. ومن أهم هذه الحريات ما يأتي:

١- حرية الاعتقاد:

لقد قرر الإسلام حرية الاعتقاد وكفلها في أوسع نطاق وأكمل صورة لم تعهدها الإنسانية قديماً وحديثاً، ويبدو هذا واضحاً من المبدأ الذي رسمه القرآن الكريم وبينته السنة المطهرة لاعتناق العقيدة الإسلامية.

وإذا أردنا أن نستعرض الآيات التي تشكل معنى حرية العقيدة فإننا نجد أنها تعلن عدم الإكراه في الدين، وتعطي الناس الحرية في اعتناق العقيدة التي يريدون أن يلقوا ربهم عليها ما دام قد تبين الرشد من الغي.. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

ففي هذه الآية الكريمة «يتجلى تكريم الله للإنسان، واحترام إرادته وفكره ومشاعره، وترك أمره لنفسه فيما يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد، وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه، وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني، التحرر الذي تنكره على الإنسان في القرن العشرين مذاهب متعسفة، ونظم مذلة، لا تسمح لهذا الكائن الذي كرمه الله باختياره لعقيدته أن ينطوي ضميره على تصور للحياة ونظمها غير ما تمليه عليه الدولة بشتى أجهزتها التوجيهية، وما تمليه عليه بعد

١- سورة البقرة الآية: ٢٥٦.

ذلك بقوانينها وأوضاعها، فإما يعتنق مذهب الدولة هذا –وهو يحرمه من الإيمان بإله للكون يصرف هذا الكون– وإما يتعرض للموت بشتى الوسائل والأسباب»[1].

ويبين الله تبارك وتعالى في آية أخرى قدرته على إجبار البشر على الإيمان، وأنه سبحانه لو أراد أن يجعل الناس جميعاً مؤمنين لفعل، ولكنه لم يفعل ليحقق الابتلاء والاختبار في هذه الدنيا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وواقع الإسلام التاريخي حافل بترك الناس أحراراً في عقائدهم دون إجبار على عقيدة معينة، ودون إلزام بعقيدة؛ «فالرسول ﷺ أقر اليهود على يهوديتهم في المدينة واليمن، والنصارى على نصرانيتهم في بلاد العرب وعلى الأخص في نجران واقتدى به أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وقد أمر أسامة بن زيد بترك الناس أحراراً في عقائدهم، وأمره ألا يقتل الرهبان وأن يتركهم أحراراً في ديارهم وصوامعهم، وكذلك فعل الفاروق عمر مع الفرس»[3].

وقد شهد بهذه الحرية غير المسلمين، يقول المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد: «إن الفتح الإسلامي لمصر جلب إلى القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك، وقد تركهم عمرو

١– في ظلال القرآن: سيد قطب، ج ١ ص٢٩١.

٢– سورة يونس الآية: ٩٩.

٣– ومن ذلك ما أعطاه لأهل إيلياء من الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانيتهم، واستمر المسلمون كذلك في جميع عهودهم في إعطاء الشعوب في ظل الحكم الإسلامي حرية الاعتقاد، ومن مراجعة بسيطة لجميع التشريعات في كتب الفقه الإسلامي نجد تقرير هذه الحرية من غير نكير، ومن مراجعة واقع الأمر في عهود الدولة الأموية والعباسية والفاطمية والأيوبية والمماليك والعثمانية يتضح تقرير هذه الحرية في أجلى مظاهرها (انظر: المجتمع المتكافل في الإسلام: عبد العزيز الخياط ص٧٢).

بن العاص أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنُّوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني، ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب»[١].

٢- حرية الفكر:

تعني حرية الفكر «أن يكون للإنسان الحق في أن يفكر تفكيراً مستقلاً في جميع ما يكتنفه من شئون، وما يقع تحت إدراكه من ظواهر، وأن يأخذ بما يهديه إليه فهمه، ويعبر عنه بمختلف وسائل التعبير»[٢]. ومن هنا جاء الإسلام معلناً حرية التفكير، فدعا الإنسان إلى التأمل والتفكر، وحثه على استجلاء الحقائق، والنظر إلى ما وراء الأشياء وإلى غايتها.

والقارئ لكتاب الله تعالى يجد حشداً من الآيات التي تحث الإنسان على التفكير العميق الذي به يبصر الإنسان كل ما يحيط به من مخلوقات حتى يصل في النهاية إلى معرفة الله ووحدانيته.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ انْظُرواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّظُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾[٣].

فهذه الآيات -وغيرها كثير- دعوة إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وفي خلق الأنفس، وفيما تقع عليه الأبصار أو تسمعه الآذان ليصل الإنسان من وراء ذلك كله إلى معرفة الخالق سبحانه وتعالى.

١- الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد: ص١٢٣، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، ط مكتبة النهضة المصرية - الثالثة ١٩٧٠م.

٢- حقوق الإنسان في الإسلام، د. على عبد الواحد: ص٢٢٩.

٣- سورة الأعراف الآية: ١٨٥.

وحتى لا تتعطل حرية التفكير، فقد تتبع الإسلام كافة العقبات التي تعمل على عرقلة الفكر الصحيح، فحطم القواعد التي كانت تسير عليها كثير من الأمم قبل الإسلام، وهي قواعد التقليد والاتباع وإهمال النظر والتفكير الحر.. قال تعالى معلناً التحذير من التقليد الأعمى الذي يحجر على التفكير، ويصبح الإنسان في ظله إنساناً آلياً يوجهه فكر الأسلاف والأجداد: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾[1].

وقد جاءت السنة النبوية أيضاً محذرةً من هذه التبعية المفرطة، ومن ذلك ما قاله النبي ﷺ: «لا تكونوا إمعة[2] تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»[3].

وهكذا جاء الإسلام ليحرر العقل البشري من إساره ويضع عنه القيود والأغلال التي عطلته زمناً طويلاً؛ وهو الأمر الذي بسببه جاد العقل الإسلامي بأروع حضارة عرفها التاريخ، وخرجت نوابغ في كل الميادين كانوا غرراً في وجه الزمان.

ولعل أكبر شاهد على حرية الفكر في الإسلام هو «تعدد المذاهب السياسية والفرق الدينية، ومدارس الاجتهاد، ومبدأ الشورى، هذا المبدأ الذي أمر به القرآن الكريم ﴿ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾[4]، وكان ركيزة

١- سورة البقرة الآية: ١٧٠.

٢- الإمعة: بكسر الهمزة وتشديد الميم الذي لا رأي له ولا عزم، فهو يتابع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء (لسان العرب: لابن منظور، ج١ ص١٣١).

٣- أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو، ج ٤ ص٢٤٦، حديث رقم: (٢٠٧٥) وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

٤- سورة الشورى الآية: ٣٨.

من ركائز الدولة الإسلامية، ومظهراً من مظاهر ديمقراطيتها؛ إذ كان للرأي الأصلح دائماً القدح المعلى والكلمة النافذة»[1].

وقد كان من نتائج هذه الحرية التي أعطاها الإسلام لمجتمعه «أن سلك العلماء والمفكرون السبل التي يريدونها، وطرقوا الدراسات التي يرغبونها، لا يقف أمامهم الإسلام أو الدولة المنبثقة عنه من شتى العلوم والفنون في الفلسفة والمنطق والتوحيد والأصول والفقه والتصوف والطب والكيمياء والطبيعة والهندسة والرياضة، وغير ذلك مما دفع بالإنسان خطوات كبيرة إلى الأمام، وكان أساساً في إقامة النهضة الأوربية الحديثة»[2].

ومما يجدر ذكره هنا أن الإسلام عندما أطلق حرية الفكر قيدها بالحفاظ على أركان الدين، وهو أساس الدولة، فليس من حق شخص يدعي أنه يفكر ثم يصل من تفكيره هذا إلى نفي الألوهية أو الرسالات السماوية أو الطعن فيما هو مسلم من الدين، ويعلن ذلك على الناس، فالإسلام لا يسمح بذلك تحت أي اسم أو في أية حال.

٣- حرية العمل:

لقد دعا الإسلام إلى العمل وحث عليه، وحارب الكسل والخمول، وهذا ما أكد عليه القرآن الكريم في مواقع كثيرة من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[3]. كما بين القرآن الكريم أن العمل نعمة من النعم التي تستوجب شكر المنعم سبحانه وتعالى وأساس ذلك قوله تعالى:

١- الإسلام انطلاق لا جمود: مصطفى الرافعي، ص٤٢.

٢- معالم الثقافة د. عبد الكريم زيدان: ص٦٥.

٣- سورة الملك الآية: ١٥.

﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾[1].

وقد اهتمت السنة النبوية أيضاً بالعمل اهتماماً بالغاً، وتناولته من جوانب عديدة، وأحاديث النبي ﷺ في هذا الأمر كثيرة جداً يضيق المكان لذكرها، ومن ذلك أن النبي ﷺ جعل العمل في الإسلام شرفاً ومفخرة فقال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»[2].

كما ندد النبي ﷺ بالكسل وحارب الفقر والمسألة عند القدرة على العمل فقال: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعَة[3] لحم»[4]. كما أنه لا يجوز إعطاء الزكاة للقادر على العمل والكسب وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى»[5].

هذا وقد حمى الإسلام حرية العمل بأمرين:

أحدهما: بعدم التضييق عليه في الحصول على نتائج عمله، حتى إنه ليبيح لمن يحيي أرضاً ميتةً لا ينتفع بها بأي نوع من أنواع النفع أن يملكها فيقول النبي ﷺ: «من أحيا أرضاً موتاً فهي له وليس لعرق ظالم حق»[6]. وإحياء الأرض الميتة يكون بجعلها صالحة للانتفاع بعد أن كانت غير صالحة مع التذكير بأن الأمر في العصور الحاضرة،

١- سورة يس الآية: ٣٤.

٢- أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ج ٤ ص٣٧٣، حديث رقم: (٢٠٧٢)، (فتح الباري).

٣- أي قطعة لحم (المعجم الوجيز – مجمع اللغة العربية ص٥٨٠).

٤- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة للناس، ج ٢ ص٧٢٠، حديث رقم: (١٠٤٠).

٥- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة، ج٢ ص٨٢، حديث رقم: (٦٤٧) وقال حديث غريب من هذا الوجه.

٦- ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، كتاب البيوع، باب إحياء الموات، ج٤ ص١٥٨ وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه مسلم بن خالد الزنجي وثقه ابن معين وغيره وضعفه أحمد وغيره.

صار بيد الدوائر الرسمية التي يتعين عليها تقديم الحوافز في هذا الاتجاه تحقيق.

الأمر الثاني: منع المسلم من أن يحقر عمل أخيه المسلم، فقد نهى الإسلام من أن يحقر المسلم أخاه لمهنته، واعتبر العمل اليدوي من خير الأعمال فقال عليه الصلاة والسلام: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده»[1][2].

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الإسلام عندما أطلق حرية العمل والسعي في الأرض قيدها بما وافق الشرع، أما إذا كان العمل غير مشروع في نظر الإسلام يحظره بوصفه ديناً سماوياً جاء من عند الله وذلك كالاتجار بالخمر وتصنيعها، واقتناء الخنزير وبيعه واشترائه، وتعاطى الميسر والربا، لأن الله تعالى حرم ذلك في كتابه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3].

٤- حرية الذات «الحرية الشخصية»:

احترم الإسلام الذات الإنسانية وكرمها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾[4]، وكفل للإنسان أن يعيش آمناً على حياته لا يعتدي عليه أحد، فالاعتداء على النفس بالقتل من أعظم الجرائم التي نهى الإسلام عنها وشدد على عقوبتها، حتى لقد قرنه

١- أخرجه الإمام البخاري في كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ج٤ ص٣٧٣، حديث رقم: (٢٠٧٢) (فتح الباري).

٢- تنظيم الإسلام للمجتمع: الإمام محمد أبو زهرة، ص١٨٨.

٣- سورة المائدة الآيتان: ٩٠، ٩١.

٤- سورة الإسراء الآية: ٧٠.

الله تعالى في القرآن بقتل الناس جميعاً، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ولا يفرق الإسلام في ذلك بين أن يكون القتيل رجلاً أو امرأة، عاقلاً أو مجنوناً، بالغاً أو صبياً، شريفاً أو وضيعاً، مسلماً أو ذمياً، فيقتل الرجل في المرأة، والمسلم في الذمي والعكس، لعموم قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[2].

ومع أن الإسلام عظم حقوق الوالدين على الأبناء إلا أن الشارع الحكيم لم يترك الحقوق للأهواء هكذا عبثاً، فحرم على الوالدين قتل أولادهم حتى ولو كان الداعي في ذلك خشية الفقر والإملاق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[3].

ودعما لحرية الإنسان الشخصية، فقد أعطى الإسلام للإنسان الحرية في أن يتصرف في شئون نفسه، وحمله مسئولية هذا فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[4]، كما أعطاه الحرية في أن يأكل ما يشاء ويشرب ما يشاء، ويلبس ما يشاء قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[5] ولكن شريطة ألا يخرج عن دائرة الشرع، فلا يجوز للإنسان أن يشرب ما حرمه الله كالخمر ولا يجوز

١- سورة المائدة الآية: ٣٢.

٢- سورة المائدة الآية: ٤٥.

٣- سورة الإسراء الآية: ٣١.

٤- سورة المدثر الآية: ٣٨.

٥- سورة الأعراف الآية: ٣١.

أن يأكل ما حرمه الله كالميتة والدم ولحم الخنزير، كما لا يجوز له أن يلبس ما نهى الله عنه كالحرير بالنسبة للرجال.

٥- حرية المأوى:

كفل الإسلام للإنسان الحرية في بيته الذي يسكن فيه، فلا يجوز لأحد أن يدخل مسكنه إلا بإذنه ورضاه، كما لا يجوز أن يتجسس عليه وهو في بيته.. وهذا ما صرحت به آيات القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾[١].

وهكذا يشعر الفرد في بيته بأنه محاط بسياج من الأمن والطمأنينة، فكل إنسان له حرمته التي يجب أن تصان وتحترم، وكل من يعتدى عليه بالنظر في بيته أو تتبع عوراته يعتبر في الشرع مخالفاً ومن ثم تجب محاسبته.

وهكذا يشعر الفرد في المجتمع الإسلامي بأنه محاط بسياج من الأمن والطمأنينة يحفظ له حقوقه وحرماته، فلا تمس من قريب أو بعيد.

٦-حرية التعليم:

إن العلم من أعظم القيم التي نادى بها الإسلام و«أقام عليها حياة الإنسان المعنوية والمادية، والأخروية والدنيوية، وجعله طريق الإيمان وداعي العمل، وهو المرشح الأول للخلافة في الأرض، وبه فضل آدم أبو البشر على الملائكة الذين تطلعوا إلى منصب الخلافة، لأنهم أعبد لله من الذين توقعوا منهم أن يفسدوا في الأرض ويسفكوا الدماء، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٢]، والقرآن الكريم يجعل العلم أساس التفاضل بين الناس:

١- سورة النور الآية: ٢٧.

٢- سورة البقرة الآيتان: ٣٠،٣١.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد كان لتقرير الإسلام هذه الحرية لجميع الناس آثار طيبة في المجتمع الإسلامي نذكر منها:

١- إن العلم كان يشمل جميع الفئات حيث كان يبدأ من الفرد ثم يعم الأسرة والمجتمع.

٢-إن العلم كان مشاعاً في المجتمع ميسراً لكل إنسان في المسجد، وفي المدرسة وفي الحلقات العلمية، وفي المكتبات العامة، فلم يعرف المجتمع الإسلامي «أرستقراطية العلم أو انحصاره في فئة معينة كما كان محصوراً في رجال الدين عند أكثر الأمم القديمة، وخاصة عند الغربيين حتى عصر النهضة»[2].

٧- حرية التملك:

إن الملكية في الإسلام «من خصائص الحرية؛ فالعبد لا يملك والحر هو الذي يملك، بل هي من خصائص الإنسانية فالحيوان لا يملك والإنسان هو الذي يملك، ولهذا أقر الإسلام حرية «الملكية الفردية»؛ لأنه دين جاء يحترم الفطرة، ويحترم الحرية، ويحترم الإنسانية، كما أنه ليس من العدل أن تحرم الإنسان ثمرة سعيه وكسبه لتمنحها لغيره من القاعدين الخاملين، إنما العدل أن تتيح الفرصة للجميع ليكسبوا ويتملكوا، فإذا تميز فرد بذكائه وجده، وإتقانه ومصابرته، استحق من الجزاء ما يكافئ عمله ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[3]، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[4] [5].

١- سورة الزمر الآية: ٩.

٢- اشتراكية الإسلام د. مصطفى السباعي: ص١٠٩.

٣- سورة الرحمن الآية: ٦٠.

٤- سورة الأحقاف الآية: ١٩.

٥- ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده، د. يوسف القرضاوي: ص٢٠٢ ، ٢٠٣.

ومن هنا أباح الإسلام للفرد ملكية خاصة لا يجوز الاعتداء عليها، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾[2] فهذه الآية والتي قبلها تقرر حق التملك للإنسان حيث أضافت الأموال إلى أصحابها.

ولعل عقوبة السرقة التي شرعها الإسلام للسارق دليل واضح على احترام الإسلام لهذه الحرية وصيانتها وعدم الاعتداء عليها. قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[3].

ومما هو جدير بالذكر أن الإسلام حينما أباح حرية التملك قيدها بأن «يأخذ المال من حله، وينفقه في محله، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادي أنصار «المذهب الحر» بل هي مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع حتى إن انتزاع هذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة على أن يعوض عنه ثمن المثل، ذلك أن المال مال الله، وهو مستخلف فيه، وبعبارة أخرى: هو وكيل الجماعة في رعايته وتثميره وإنفاقه، فإذا أساء التصرف في المال كان من حق الجماعة أن تغل يده، وتحجر عليه، كما أن للجماعة عليه حقوقاً في هذا المال، بعضها دوري ثابت كالزكاة بأنواعها، وبعضها غير دوري كما في الحديث: «إن في المال لحقاً سوى للزكاة»[4]، وبعضها يفرضه ولي الأمر عند الحاجة»[5].

١- سورة التوبة الآية: ١٠٣.

٢- سورة المعارج الآية: ٢٤.

٣- سورة التوبة الآية: ٣٨.

٤- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة، ج ٢ ص٨٥، حديث رقم: (٦٥٤).

٥- الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي: ص١٨٣.

وهكذا سلك الإسلام نحو الملكية منهجاً وسطاً لا إفراط ولا تفريط؛ فلم يسلب حرية الفرد لملكيته، ولم يطلق يد الجماعة في كل شيء، وإنما ضبط لكل منهما حقوقه وواجباته التي تجعل من الإنسان أداة بناء لصالح الإنسانية جمعاء.

٨- الحرية السياسية:

إن الحرية السياسية في نظر الإسلام جزء أساسي من الحرية الإنسانية، ومن ثم دعا الإسلام إلى الحرية السياسية، وأباح للناس -أفراداً وجماعات- أن يبدوا آراءهم في الحكم ما داموا لا يخرجون عن طاعة ولا يسعون في الأرض فساداً. وتتجلى الحرية السياسية في الإسلام في الأمور الرئيسية التالية:

أ- حرية اختيار الحاكم:

إن حرية المسلمين في اختيار الحاكم «نتيجة طبيعية لتقرير الإسلام لقاعدة «الشورى» كأساس تقوم عليه العلاقة بين الشعب والحاكم. فالشعب المسلم يشارك في اختياره للحكم عن طريق البيعة، وإقرار أهل الحل والعقد أو عن طريق انتخاب الأمة له.

وفي طريقة اختيار الخلفاء الراشدين ما يدلنا على أهمية مشاركة الشعب وأهل الحل والعقد، فقد ترك الرسول ﷺ المسلمين دون أن يعين عليهم خليفة، وتداول المسلمون بعد وفاة الرسول ﷺ في اختيار خليفة له وأدلى كل منهم برأيه، ودافع عنه بالحجة والمنطق، ثم أقروا جميعاً اختيار أبى بكر رضي الله عنه للأمر، وقبل أن يتوفى أبو بكر استشار المسلمين فيمن يكون عليهم من بعده، وأخذ رأي الصحابة وأهل الحل والعقد والأمراء والقواد، وعندما اتفقت آراؤهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب لهم عهداً بذلك، فكان هذا العهد ممثلاً لإرادة المسلمين ورأيهم[1].

١- أصول الدعوة د. عبد الكريم زيدان: ص٦٧.

وترك عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأمر شورى للمسلمين على أن يكون اختيار الخليفة من بين ستة يجمع المسلمون على تقديمهم، وأجرى هؤلاء الستة ومن يمثلهم مشاورات واسعة حتى أقرت الأكثرية اختيار عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهكذا كان المسلمون في جميع هذه الحالات يبايعون الرجل المختار بيعة عامة إعلاناً عن رأيهم وعن إقرارهم ومشاركتهم[١]. وهكذا يتبين أن اعتبار رغبة الأمة أو أهل الرأي فيها هو الأساس الذي يقوم عليه اختيار الحاكم.

ب- مراقبة تصرفات الحاكم ونقدها وإبداء الرأي فيها:

إن حرية إبداء الرأي ومراقبة الحاكم المسلم هي مظهر الحكم في النظام الإسلامي، يؤكد ذلك ويبينه قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[٢].

ولقد بلغت الحرية السياسية في النظام الإسلامي حداً جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يترك المنافقين دون عقوبة مع تطاولهم عليه، واعتراضهم على بعض الأعمال التي كان يقرها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك «حتى لا يتخذ بعض الأمراء من بعده مسوغا لمنع الناس من إبداء آرائهم، فكان يتحمل عليه الصلاة والسلام مرارة ذلك ويأخذهم بالرفق خشية أن يفتح باب الأذى لمن يجيء بعده، ولقد سجل القرآن الكريم ما فعله أولئك المنافقون فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾[٣][٤].

ومن هنا كان الخلفاء الراشدون يدعون الناس إلى نقدهم، ومن ذلك

١- السابق نفسه.

٢- سورة الشورى الآية: ٣٨.

٣- سورة التوبة الآية: ٥٨.

٤- تنظيم الإسلام للمجتمع: محمد أبو زهرة، ص١٨٦.

ما قاله أبو بكر الصديق ﷺ عندما ولي الخلافة: «أيها الناس، إنما أنا متَّبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني»[1]. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومه»[2].

١- صفة الصفوة: للإمام جمال الدين أبى الفرج بن الجوزي، ج١ ص٩٨ تحقيق أبى على مسلم الحسيني مكتبة الإيمان – الأولى ١٤١٩هـ -١٩٩٩م

٢- تنظيم الإسلام للمجتمع: ص١٨٩.



الفصل الثالث

خصيصة التكافل الاجتماعي

المبحث الأول

الأساس الفكري لمفهوم التكافل

إن التكافل الاجتماعي من أعظم مقومات الحياة الاجتماعية الكريمة، لا تكمل سعادة المجتمع إلا به، بل هو الأساس في حياة المجتمعات وبقائها عزيزة بهيبتها، قائمة بواجبها. ومن هنا كان التكافل الاجتماعي من أعظم سمات المجتمع المسلم ومن أبرز لوازمه، حيث يشعر الجميع بمسئولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه، وأنه كما يسأل عن نفسه يسأل عن غيره.

وتنظم آيات القرآن الكريم والسنة النبوية الأساس النظري للتكافل، فمن القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[١].

«فالملاحظ أن تأكيد الإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب، والأمر بالإنفاق في سبيل الله والتحذير من الشح والبخل، وبيان أن طاعة الله ليست قاصرة على العبادة، بل هي شاملة المنهج الإلهي كله والذي منه إيتاء المال على حبه ذوي القربى واليتامى.... كل ذلك يؤكد أن الإسلام جاء ليحقق التكافل العام بين جميع أفراد الأمة وأبناء المجتمع ليعيش الجميع تحت راية الإسلام في أمن ورخاء وتعاون وعيش كريم»[٢].

١- سورة النساء الآيتان: ٣٦، ٣٧.

٢- التكافل الاجتماعي، د. عبد الله ناصح علوان: ص١٧.

وأما أدلة التكافل في السنة النبوية فهي أكثر من أن تحصى حيث وردت أحاديث كثيرة تدعو إلى التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع المسلم، من ذلك: قوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه».

فهذه التوجيهات النبوية في التواد والتعاطف، والأمر بوجوب التعاون في المركوب والزاد دلالة واضحة على حرص النبي ﷺ على إيجاد المجتمع المتكافل.

هذا وقد أجمع المسلمون في كل زمان ومكان على التعاون والتكافل والتساند، واتفقوا على حماية الضعيف ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، والتعاون الشامل في الصالح العام، وتكافلهم في الرخاء والشدة، كما حصل في عام الرمادة زمن خلافة عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- وهو الذي كان يقول من غير أن ينكر عليه أحد ذلك: «والله الذي لا إله إلا هو، ما أحد إلا وله في هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام، والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه يعن في طلبه»[2].

١- أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج٤ ص١٩٩٩، حديث رقم: (٢٥٨٦).

٢- مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لأبى الفرج بن الجوزي، ص ١٠٠، ط دار الكتب العلمية- بيروت، د.ت.

كما أن ارتفاع الفقر وعدم وجود الفقراء في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز دليل واضح على أن المجتمع في زمنه كان مجتمعا متكافلا متضامنا يعطف فيه الغني على الفقير، ويساعد القوي فيه الضعيف.

ومما سبق يتبين: أن المجتمع الذي يقوم على التعاون ويتحقق بين أفـراده التكافل مجتمع حصين متماسك لا تؤثر فيه معـاول الهدم ولا حادثات الليالي.

المبحث الثاني
ميادين التكافل

إن الناظر في واقع المجتمع الإسلامي اليوم يجد أن مفهوم التكافل قد شوِّه لدى عقول الكثير من أبنائه؛ حيث يظن البعض أن نظام التكافل في الإسلام قاصر على جوانب البر والإحسان والصدقة لفئات الفقراء والمحتاجين والعاجزين، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيها أن مفهوم التكافل في الإسلام أشمل وأوسع مما يتصوره هؤلاء.. يقول سيد قطب رحمه الله: «إن نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام نظام كامل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، هذا النظام قد تدخل في عناصره مدلولات الإحسان والصدقة والبر وما إليها... ولكن هي بذاتها لا تدل على حقيقته، لأن حقيقته أوسع منها جميعاً.

إن هذه المدلولات هي بعض وسائل ذلك النظام، ولكنها ليست النظام نفسه، لأن الوسيلة غير الماهية، إن نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يعني مجرد المساعدات المالية أيا كانت صورتها، كما تعني كلمات الضمان الاجتماعي، أو التأمين الاجتماعي... فالمساعدات المالية هي نوع واحد من المساعدات التي يعنيها التكافل في الإسلام»[1].

ومن هنا فقد تعددت ميادين التكافل في الإسلام ومن أهم هذه الميادين:

١- التكافل المعيشي:

وهو ما يرتبط بحياة الناس ومعيشتهم من طعام وغذاء وكساء ومسكن وأموال وعقارات إلى غير ذلك مما لا يستغني عنه إنسان في حياته ومعيشته، «فلا يصح في شريعة الإسلام، ولا يجوز في عرف

١- من كتاب الدورة الثالثة.. حلقة الدراسات الاجتماعية للدول العربية: ص٧٠٧، نقلا من كتاب: التكافل الاجتماعي في الإسلام د. عبد الله ناصح علوان: ص٢١.

الشهامة والمروءة أن يرى المسلم قريبه أو جاره، أو من يعلم بجوعه وحاجته يتلوى في العري والجوع والحرمان –وهو من ذوى المقدرة واليسار– ولا يقدم له معونة من مال، أو مساعدة من طعام أو كساء، بل نجد في نصوص الشريعة أن الذي يتأخر عن إسعاف المحتاج ويتهاون في إطعام الجائع يخرج من حظيرة الإيمان[١]، وصدق رسول البر والإنسانية القائل: «من احتكر طعاماً أربعين ليلة فقد برئ من الله تعالى وبرئ الله تعالى منه، وأيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله»[٢].

وقد عزز الإسلام التكافل المعيشي بوسائل شتى تعمل على تحقيقه بين أبناء المجتمع الإسلامي، ومن أهم هذه الوسائل: فريضة الزكاة، وصدقة التطوع، والكفارات، والفدية، والوقف، والعارية، والهبات، والأضاحي... إلخ.

٢- التكافل الأدبي:

التكافل الأدبي يعني: «إحساس كل فرد نحو الآخرين بما يخالط مشاعرهم، فيفرح لفرحهم، ويأسى لمصابهم، ويتمنى لهم الخير، ويكره الشر أن ينزل بهم»[٣].

ومن هنا حث الإسلام على مشاركة الناس في أحاسيسهم وشعورهم سواء كان ذلك في الأفراح أو الأحزان.. ففي الأفراح: دعا الإسلام المسلم إلى مشاركة المسلمين في أفراحهم، كما في النكاح مثلاً، فقد أوجب الرسول ﷺ إجابة دعوة الوليمة وبيَّن أن عدم تلبية الدعوة فيها عصيان لله ولرسوله فقال: «إذا دعي أحدكم إلى وليمة عرس فليجب»[٤].

١- التكافل الاجتماعي في الإسلام د. عبد الله ناصح علوان: ص٦٩.

٢- أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٢ ص٣٣، وذكره المنذري في الترغيب، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والحاكم، وفي هذا المتن غرابة وبعض أسانيده جيد.

٣- انظر: منهج القرآن في تربية المجتمع، د. عبد الفتاح عاشور: ص٣٥٧.

٤- أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج٢ ص٢٢، ٣٧، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٤١) وقال: صحيح.

وفي الأحـزان: حث الإسـلام على مشاركة المسلمين في أحزانهم وآلامهم، وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك بتعبير دقيق فقال ﷺ: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

وهكذا يفيض وجدان المسلم فيشارك الناس في أحاسيسهم وشعورهم في الأفراح والأحزان على السواء، وهذا من أسمى معاني التكافل بين أفراد المجتمع.

٣- التكافل الدفاعي:

وهو أن يتكافل كل مسلم في مجتمع الإسلام مع بقية إخوانه في الدفاع عن الإسلام، وحماية أرضه إذا أغار عدو على ناحية منها. ولهذا دعا الله عز وجل المؤمنين جميعاً إلى النفير العام فقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2].

فعندما نزلت هذه الآية وسمعها المسلمون هبوا من كل صوب للدفاع عن الإسلام وحماية المستضعفين في أنحاء الأرض وإسقاط جحافل الظلم والطغيان. فإذا أسر العدو واحداً من المسلمين في المغرب وجب على آخر رجل بالمشرق أن يهب مع إخوانه لاستنقاذه وتخليصه من أيدى الأعداء.

٤- التكافل العلمي:

والتكافل العلمي يعني: أن يتكافل العالم بتعليم الجاهل، وأن يجد الجاهل في التعلم من العالم. وهذا ما بينه الرسول ﷺ في قوله: «ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم، ولا يعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟ والله ليعلمن

١- سبق تخريجه.

٢- سورة التوبة الآية: ٤١.

قوم جيرانهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقوبة»[1].

يقول الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله- معلقاً على هذا الحديث: «إنك لترى في هذا الحديث من الحقائق ما يجدر التنبيه إليها:

أ- إن الرسول ﷺ لم يقر قوماً على الجهالة بجانب قوم متعلمين، واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصيانا لأوامر الله وشريعته.

ب- واعتبر ذلك أيضاً «عدواناً» و«منكراً» يوجبان اللعنة والعذاب.

ج-أعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعليم والتعلم»[2].

٥- التكافل السياسي:

وهو «تحمل كل شخص لتبعة الحكم وتوجيه السياسة العامة للدولة، وذلك بالمشاركة في الرأي، وإبداء المشورة، وقد يكون هذا التكافل عن طريق نوَّاب يختارهم الشعب لإبداء الرأي وتوجيه سياسة الحكم، أو عن طريق المشاركة الفعلية بين الحاكم والمحكوم... إذ ليست الأمة ملكاً لأحد، وإنما هي لواء يستظل به الجميع فلا استبداد برأي ولا اعتداد بمنصب»[3].

وإلى هذا يشير النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويُردّ على أقصاهم»[4].

١- سبق تخريجه.

٢- الرسول والعلم د. يوسف القرضاوي ص١١٥ ط مؤسسة الرسالة - الثالثة ١٤٠٦هـ -١٩٨٥م.

٣- منهج القرآن في تربية المجتمع د. عبد الفتاح عاشور ص٣٥٩.

٤- أخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، ج ٢ ص٨٩٥، حديث رقم: (٢٦٨٣)، وذكره الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٦٦) وقال صحيح.

ومن هنا «أجمع الفقهاء على أنه إذا أجار مسلم رجلاً حربياً، وأعطاه الأمان، فقد أصبح هذا الأمان محترماً تلزم به الدولة مهما كان المجير عالماً أو جاهلاً قوياً أو ضعيفاً، رجلاً أم امرأة، إلا إذا اقتضت مصلحة الدولة خلاف ذلك»[1].

٦- التكافل الأخلاقي:

وهو أن يتكافل أفراد المجتمع في صيانة الأخلاق العامة والأخذ على أيدي المخربين والمفسدين، وقد جعل الإسلام هذا التكافل الأخلاقي فريضة لازمة على كل مسلم، بل جاء على لسان الرسول ﷺ أنه الدين كله بالنسبة إلى جميع الطبقات: «الدين النصيحة، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[2].

وقد ضرب النبي ﷺ للصحابة رضي الله عنهم مثلا بديعاً للتكافل الأخلاقي الذي يوجب الأخذ على أيدي المنحرفين حين شبه الحياة بسفينة في خضم، وبيّن أن الراكبين فيها مسئولون عن سلامتها، ومن ثم فليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية، فقال ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً»[3].

ففي هذا الحديث يجعل النبي ﷺ «كل مسلم مسئولاً عمن حوله من أبناء المجتمع، وينصح لهم وينصحون له، ويوصيهم بالحق والصبر،

١- اشتراكية الإسلام د. مصطفى السباعي ص١٨٠.

٢- سبق تخريجه ص.

٣- سبق تخريجه.

ويتقبل الوصية منهم كذلك، وليس في المسلمين أحد أكبر من أن ينصح ولا أحد أصغر من أن ينصح، وهذا من أساسيات الدين وموجبات الإيمان وشروط النجاة من الخسران، وفي القرآن: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1] [2].

وهكذا يتبين أن المجتمع الذي يتكافل أفراده في صيانة الأخلاق العامة، والأخذ على أيدي المنحرفين هو المجتمع الذي ينجو من الهلاك، وأن المجتمع الذي يهمل ذلك هو الذي يبوء بالسقوط والدمار.

١- سورة العصر.

٢- الإسلام حضارة الغد، د. يوسف القرضاوي: ص١٧٨، ١٧٩.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة حول أسس النظام الاجتماعي وخصائصه في ضوء الإسلام.

أهم النتائج والخلاصات:

- إن المجتمعات البشرية كانت تعيش قبل مجيء الإسلام على شفا جرف هار مهددة بالشقاء والفناء.

٢- حدد الإسلام أسس الإصلاح، ووجه المجتمع إلى ضرورة القيام عليها والأخذ بها حتى يتحقق له الهدف المنشود، وأهم هذه الأسس العقيدة، والأخلاق، والعبادة، والعدالة، وأداء الحقوق والواجبات الاجتماعية، والمؤاخاة وهذه الأسس كفيلة بإذن الله تعالى بإصلاح المجتمع اليوم كما أصلحته بالأمس.

٣- يتميز المجتمع المسلم عن سائر المجتمعات الأخرى بنظمه وقوانينه، إذ إنه انبثق من شريعة جاءت من لدن حكيم خبير.

٤- يتميز المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع عالمي لا فرق فيه بين شخص وآخر إلا بالتقوى، وأنه مجتمع متكافل تكافلاً ماديا ومعنويا بالإضافة إلى أنه مجتمع متناصح يوقن كل فرد فيه بأن الدين النصيحة.

٥- إن طبيعة العلاقة التي تربط أفراد المجتمع الإسلامي مع غيرهم من أهل الكتاب تبين أن معاملة أبناء المجتمع الإسلامي لغيرهم من أهل الذمة تقوم على أسس ثابتة من العدالة والرحمة والتسامح.

٦- إن المتتبع لخط الانحراف الذي أصاب المجتمع الإسلامي يلاحظ أنه بدأ مع بداية البعد عن منهج الإسلام وتعاليمه السامية، وأنه كلما ازداد البعد عن منهج الإسلام ازداد الضعف والانحراف.

٧- إن إهمال الجانب الاجتماعي من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى ضعف المجتمع وتفككه، وقد اتضح من خلال البحث أن هناك فارقا كبيراً بين واقع العلاقات الاجتماعية التي تسود الأسرة اليوم وبين واقع الأسرة في المنظور الإسلامي، كذلك الشأن مع ذوي الأرحام والجوار وبقية أفراد المجتمع.

٨- إن التهاون في القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب ضعف المجتمع الإسلامي حيث يؤدي إلى ظهور المنكر والتجرؤ على اقترافه.

٩- إن الطريق الوحيد للتخلص من الضعف الذي تعيشه المجتمعات اليوم هو العودة إلى الإسلام ونظمه التي تشمل جميع مناحي الحياة.

أهم المصادر والمراجع:

١- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ط دار البيان العربي، ب.ت.

٢- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ط دار الريان، القاهرة، ب.ت.

٣- جامع البيان في تفسير القرآن، أبو جعفر بن جرير الطبري، ط دار المعرفة بيروت، الرابعة ١٤٠٠ه، ١٩٨٠م.

٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط الرابعة ١٤٠٥ه، ١٩٨٥م.

٥-صحيح مسلم، الإمام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ط الأولى ١٣٧٤ه-١٩٥٥م.

٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد ابن على بن حجر العسقلاني، ط دار الحديث، - القاهرة، الأولى ١٤١٩ه، ١٩٩٨م.

٧- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، ط مكتبة وهبة، القاهرة، الخامسة عشرة ١٤٠٥ه.

٨- إحياء علوم الدين، حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، ط دار المنار، الأولى ب.ت.

٩-الإسلام عقيدة وشريعة، الإمام الأكبر محمود شلتوت، ط دار الشروق، الثانية عشرة ١٤٠٣ه-١٩٨٣م.

١٠- الأخوة: جاسم محمد مهلهل الياسين، ط دار الدعوة – الكويت، الثانية ١٤١٤ ه، ١٩٩٤م.

١١-الأخـوة الإسلامية، د. عبد الله ناصع علوان، ط مكتبة المنار، الثالثة ١٤٠٥ه-١٩٨٥م.

١٢- الأمـن في الإسـلام، أحـمـد عـمـر هـاشـم، ط دار المـنـار، ١٤٠٦ه-١٩٨٦م.

١٣- بحوث في الإسلام والاجتماع، د. علي عبد الواحد وافي، ط هيئة مصر - الأولى، ب.ت.

١٤- التكافل الاجتماعي في الإسلام، د. عبد الله ناصح علوان، ط دار السلام - السادسة ١٤٢٢ه، ٢٠٠١م.

١٥- الحريات العامة في الفكر السياسي والإسلامي، د. عبد الحكيم حسن العيلي- ط دار الفكر العربى-١٩٨٣م.

١٦- حقوق الإنسان في الإسلام، د. علي عبد الواحد وافي، ط دار نهضة مصر- الخامسة ١٣٩٨ه، ١٩٧٩م

١٧- رعاية المسنين في الإسـلام، عبد الله ناصر السرحان، هدية مجلة الأزهر - عدد شوال، ١٤٢١ه.

١٨- السلوك الاجتماعي في الإسـلام، الشيخ حسن أيـوب، ط دار التوزيع والنشر الإسلامية، ١٤١٧ه.



١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.

د. عبد العزيز برغوث.

٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).

د. عبد الله الطنطاوي.

٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.

د. محمد إقبال عروي.

٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.

د. الطيب برغوث.

٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .

د. سعاد الناصر (أم سلمى).

٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.

د. مصطفى قطب سانو.

٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.

د. عبد الكريم بوفرة.

٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.

د. إدهام محمد حنش.

٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.

د. محمود النجيري.

١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.

______________ د. محمد كمال حسن.

١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.

______________ د. يحيى وزيري.

١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.

______________ د. عبد الرحمن الحجي.

١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).

______________ الشاعرة أمينة المريني.

١٤- الطريق... من هنا.

______________ الشيخ محمد الغزالي

١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.

______________ د. حميد سمير

١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).

______________ فريد محمد معوض

١٧- ارتسامات في بناء الذات.

______________ د. محمد بن إبراهيم الحمد

١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.

______________ د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامة في النقد والإبداع.

د. عمر أحمد بو قرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

د. حسن الأمراني

د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

________________ أ. د. عبد الحميد محمود البعلي

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

________________ الشاعر محمود مفلح

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

________________ د. محمد الحبيب التجكاني

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء.

________________ أ. طلال العامر

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

________________ د. أشرف محمد دوابه

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم .

________________ د. حكمت صالح

٣٤- الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية.

________________ د. عبد الرحمن العضراوي

٣٥- السنابل... (ديوان شعر).

________________ أ. محيي الدين عطية

٣٦- نظرات في أصول الفقه.

________________ د. أحمد محمد كنعان

٣٧- القراءات المفسرة ودورها في توجيه معاني الآيات القرآنية.

د. عبد الهادي دحاني ________________

٣٨- شعر أبي طالب في نصرة النبي ﷺ.

د. محمد عبد الحميد سالم ________________

٣٩- أثر اللغة في الاستنباطات الشرعية.

د. حمدي بخيت عمران ________________

٤٠- رؤية نقدية في أزمة الأموال غير الحقيقية.

أ.د. موسى العرباني ________________

د.ناصر يوسف ________________

٤١- مرافىء اليقين (ديوان شعر).

الشاعر يس الفيل ________________

٤٢- مسائل في علوم القرآن.

د. عبد الغفور مصطفى جعفر ________________

٤٣- التأصيل الشرعي للتعامل مع غير المسلمين.

د. مصطفى بن حمزة ________________

٤٤- في مدارج الحكة (ديوان شعر).

الشاعر وحيد الدهشان ________________

٤٥- أحاديث فضائل سور القرآن: دراسة نقدية حديثية.

د. فاطمة خديد ________________

٤٦- في ميــزان الإسـلام.

د. عبد الحليم عويس ________________

٤٧- النظر المصلحي عند الأصوليين.

د. مصطفى قرطاح ________________

٤٨- دراسات في الأدب الإسلامي.

د. جابر قميحة ________________

٤٩- القيمُ الروحيّة في الإسلام.

د. محمّد حلمي عبد الوهّاب ________________

٥٠- تـلاميـذ النبـوة (ديوان شعر).

الشاعر عبد الرحمن العشماوي ________________

٥١- أسماء السور ودورها في صناعة النهضة الجامعة.

د/ فـؤاد البنـا ________________

٥٢- الأسرة بين العدل والفضل.

د. فريد شكري ________________

٥٣- هي القدس... (ديوان شعر).

الشاعرة: نبيلة الخطيب ________________

٥٤- مسار العمارة وآفاق التجديد.

م. فالح بن حسن المطيري

٥٥- رسالة في الوعظ والإرشاد وطرقهما.

الشيخ محمد عبد العظيم الزُّرْقاني

٥٦- مقاصد الأحكام الفقهية.

د. وصفي عاشور أبو زيد

٥٧- الوسطية في منهج الأدب الإسلامي.

د. وليد إبراهيم القصاب

٥٨- المدخل المعرفي واللغوي للقرآن الكريم.

د. خديجة إيكر

٥٩- أحاديث الشعر والشعراء.

د. الحسين زروق

٦٠- من أدب الوصايا.

أ. زهير محمود حموي

٦١- سنن التداول ومآلات الحضارة.

د. محمد هيشور

٦٢- نظام العدالة الإسلامية في نموذج الخلافة الراشدة.

د. خليل عبد المنعم خليل مرعي

٦٣- التـراث العمـراني للمدينة الإسـلامـيـة.

———————————— د. خالد عزب

٦٤- فراشات مكة... دعوها تحلق.. (رواية).

———————————— الروائية: زبيدة هرماس

٦٥- مباحث في فقه لغة القرآن الكريم.

———————————— د. خالد فهمي

———————————— د. أشرف أحمد حافظ

٦٦- محمود محمد شاكر: دراسة في حياته وشعره.

———————————— د. أماني حاتم مجدي بسيسو

٦٧- بوح السالكين (ديوان شعر).

———————————— الشاعر طلعت المغربي

٦٨- وظيفية مقاصد الشريعة.

———————————— د. محمد المنتـار

٦٩- علم الأدب الاسلامي.

———————————— د.إسماعيل إبراهيم المشهداني

٧٠- الكِتَاب وصنعة التأليف عند الجاحظ.

———————————— د. عباس أرحيلة

٧١- وسائلية الفقه وأصوله لتحقيق مقاصد الشريعة.

———————————— د. محمد أحمد القياتي محمد

٧٢- التكامل المعرفي بين العلوم.

د. الحسان شهيد

٧٣- الطفولة المبكرة الخصائص والمشكلات.

د. وفقي حامد أبو علي

٧٤- أنا الإنسان (ديوان شعر).

الشاعر يوسف أبو القاسم الشريف

٧٥- مسار التعريف بالإسلام في اللغات الأجنبية.

د. حسن عزوزي

٧٦- أدب الطفل المسلم.. خصوصية التخطيط والإبداع.

د. أحمد مبارك سالم

٧٧- التغيير بالقراءة.

د. أحمد عيساوي

٧٨- ثقافة السلام بين التأصيل والتحصيل.

د. محمد الناصري

٧٩- ويزهر السعد (ديوان شعر).

الشاعر محمد توكلنا

٨٠- فقه البيان النبوي.

أ. محمد بن داود سماروه

٨١- المقاصد الشرعية للوقف الإسلامي.

د. الحسن تركوي

٨٢- الحوار في الإسلام منهج وثقافة.

د. ياسر أحمد الشمالي

٨٣- أسس النظام الاجتماعي في الإسلام.

د. عبد الحميد عيد عوض

نهـر متعـدد.. متجـدد

هـذا الكتـاب

للأخلاق الإسلامية أهمية بالغة في بناء المجتمع وصلاحه، فهي ضرورة اجتماعية لايستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق.. تفكك أفراد المجتمع وتصارعوا وتناهبوا مصالحهم، ثم يؤدي بهم ذلك إلى الانهيار.

فالمجتمع لايمكن أن يحفظ وحدته وتماسكه ما لم تربط بين أفراده روابط متينة من الأخلاق الكريمة ...، ففيها تتمثل أعمق العلاقات التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وأسمى المظاهر التي يمتاز بها الإنسان، وتتفرد بها حضارته..



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية
www.islam.gov.kw/thaqafa